أنت والمراهقة

عبد المنعم الزيادي

تقديم ومراجعة

د. حسن عبد الكريم

أستاذ علم النفس

الكتاب: أنت والمراهقة

الكاتب: عبد المنعم الزيادي

تقديم ومراجعة: د. حسن عبد الكريم

الطبعة: ٢٠٢٠



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الزيادي, عبد المنعم

أنت والمراهقة / عبد المنعم الزيادي, تقديم ومراجعة: د. حسن عبد الكريم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٨٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٢٩ – ٦٨٢٣– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٠٠٦٩ / ٢٠٢٠

أنت والمراهقة



مقدمة

يتعامل الكاتب عبد المنعم الزيادي مع مرحلة المراهقة باعتبارها أزمة لابد أن يمر بها الإنسان أو اختبار ضروري يجب اجتيازه بنجاح حتى يكون مؤهلًا للوصول إلى مرحلة الشباب.

فطور المراهقة يعتبر من أخطر المراحل التي يمر بها الإنسان ضمن أطوار حياته المختلفة التي تتسم بالتجدد المستمر، ومكمن الخطر في هذه المرحلة التي تنتقل بالإنسان من الطفولة إلى الرشد، حيث إنه لا ينتقل بتلك البساطة.

والمراهقة تختلف من فرد إلى آخر ومن بيئة جغرافية إلى أخرى ومن سلالة إلى أخرى، كذلك تختلف باختلاف الأنماط الحضارية التي يتربى في وسطها المراهق، فهي في المجتمع البدائي تختلف عنها في المجتمع المتحضر وكذلك تختلف في مجتمع المدينة عنها في المجتمع الريفي. كما تختلف من المجتمع المتشدد الذي يفرض كثيرا من القيود والأغلال على نشاط المراهق، عنها في المجتمع الحر الذي يتيح للمراهق فرص العمل والنشاط وفرص إشباع الحاجات والدوافع المختلفة، وبالطبع للأديان أثر كبير على هذا الاختلاف. لكن تظل الأحاسيس والأفكار متشابهة بين المراهقين في أنحاء العالم, فهي تبقى الفترة الأصعب في حياة الإنسان أينما كان، وبالطبع

تختلف النظرة إليها وقت تأليف الكتاب في ختام النصف الأول من القرن العشرين عن النظرة الآن بعد مرور عقدين من القرن الحادي والعشرين. فهل يعني ذلك أن الكتاب الذي تتصدى "وكالة الصحافة العربية – ناشرون" لإتاحته للقارىء مجددًا، فقد أهميته؟

الإجابة: لا، لم يفقد كتاب "أنت والمراهقة" للكاتب الراحل عبد المنعم الزيادي أهميته؛ فالمشكلات التي تطرأ في هذه الفترة من العمر متشابهة نسبيا بين المراهقين, مهما اختلف مكان إقامتهم أو زمن وجودهم. كما أن الكاتب الراحل تخصص في هذا النوع من الكتب التي تبسط مفاهيم علم النفس الحديث للقارىء العام، فموضوع الكتاب يرتبط بمشكلة لا يدركها النقاد وما حوته فصول الكتاب من معلومات علمية ما زالت صالحة للتداول، وما يزيد من أهمية الكتاب سلاسة أسلوب الكاتب الذي جمع في دراسته بين الذوق الأدبي والتخصص العلمي.

فالمراهقة تستحوذ على اهتمام عدد كبير من الناس، فهي أولا للمراهقين أنفسهم، وثانيا لكي يتعرف الآباء والمعلمون على كيفية التعامل مع المراهقين. وهي أيضًا عالم نفسي غريب لا يفهمه البالغون ولا حتى المراهقون أنفسهم, عالم مليئ بالكائنات التي تعترض طريق المراهق ليصبح شخصًا راشدًا وناضجًا, ما قد يسبب لديه الصد والحساسية نحو أي شخص يواجهه. وكما أن هناك الكثير من العوائق التي قد تحمي المراهق أو تدمر شخصيته.

فالمراهقة عبارة عن تغيرات في مظاهر النمو المختلفة (الجسمية والفسيولوجية والعقلية والاجتماعية والانفعالية والدينية والخلقية) والتي يتعرض الإنسان خلالها لصراعات متعددة، داخلية وخارجية، صراع بين مخلفات الطفولة ومتطلبات الرجولة والأنوثة، صراع بين طموحات المراهق الزائدة وبين تقصيره الواضح في التزاماته، صراع بين غرائزه الداخلية وبين التقاليد الاجتماعية والصراع الديني بين ما تعلمه من شعائر ومبادئ ومسلمات وهو صغير وبين تفكيره الناقد الجديد وفلسفته الخاصة للحياة. فالصراعات الداخلية قد تحطم من شخصية المراهق وتقلل ثقته بنفسه وكذلك الصراعات الخارجية التي تعزز لديه الرغبة في الانطواء والعُزلة.

وترجع كلمة "المراهقة" إلى الفعل العربي "راهق" بمعنى الاقتراب من الشيء، فراهق الغلام فهو مراهق، أي: قارب الاحتلام، ورهقت الشيء رهقًا، أي: قربت منه. والمعنى هنا يشير إلى الاقتراب من النضج والرشد.

أما المراهقة في علم النفس، فتعني: "الاقتراب من النضج الجسمي والعقلي والنفسي والاجتماعي"، ولكنه ليس النضج نفسه؛ لأن الفرد في هذه المرحلة يبدأ بالنضج العقلي والجسمي والنفسي والاجتماعي، ولكنه لا يصل إلى اكتمال النضج إلا بعد سنوات عديدة قد تصل إلى عشر سنوات.

وهي مرحلة حاسمة في الحياة الإنسانية والتي تثمر فيها العواطف الجنسيّة والأخلاقية, لتصل إلى حالة النضج.

وتعتبر المراهقة, وفقًا لهذه المفاهيم فترة زمنية تتميز بالتمرد أو الانتقال السلبي والمزعج بين الطفولة والرشد.

وقد يعتقد معظم الناس أن المراهقة مرحلة واحدة ينبغي على الأهل تحملها حتى تمر مع أطفالهم وقد لا يعلمون أن المراهقة مراحل من النمو والاكتشاف, سواء للأهل والأولاد. يخبرنا الكتاب أن المدة الزمنية التي تسمى "مراهقة" تختلف من مجتمع إلى آخر، ففي بعض المجتمعات تكون قصيرة وفي بعضها الآخر تكون طويلة.

ولذلك فقد قسمها العلماء إلى ثلاث مراحل تمتد لتشمل أكثر من عشرة أعوام من عمر الفرد.

وهذه المراحل هي:

– مرحلة المراهقة المبكرة أو الأولى:

تمتد فترة المراهقة المبكّرة بين عمر ١١ و١٤ سنة تقريبا وتتميز بتغيرات

بيولوجية سريعة.

– مرحلة المراهقة الوسطى:

تمتد مرحلة المراهقة الوسطى بين عمر ١٥ و١٧ سنة تقريبا، وهي مرحلة اكتمال التغيرات البيولوجية.

- مرحلة المراهقة المتأخرة:

تمتد هذه المرحلة تقريبًا بين أعمار ١٨ و٢١ سنة، حيث يصبح الشاب أو الفتاة إنسانًا راشدًا بالمظهر والتصرفات.

وعن المشكلات والتحديات السلوكية في حياة المراهق، يشير الكاتب إلى:

أولًا- الصراع الداخلي:

إن أحاسيس الشاب بعد بلوغه سن الرشد تتغير، فتتغير معالم جسمه الخارجية والداخلية، كما تتغير أخلاقه وسجاياه بكل ما في الكلمة من معنى، ويحدث عندئذ صراع مرير يعيشه الإنسان البالغ، حيث يكمن هذا الصراع بين دوافع الروح وميول الجسد، فتشده عوامل الروحانيات لما فيه صلاحه ونجاحه وسعادته في الدارين، بينما تدفعه الرغبات والميول وعوامل أخرى نحو السقوط في الرذائل والفساد والرغبات المحرمة شرعا وعقلا وعرفا.. فتتغير كليا تصرفاته وسلوكياته وحركاته بسبب تواجد الصراع في داخله.

ولكن المراهق يعاني أيضا من وجود صراعات داخلية عديدة أخرى، منها:

الصراع بين الاستقلال عن الأسرة والاعتماد على النفس: فالمراهق يبدأ بالتحرر من سلطة الوالدين ليشعر بالاستقلالية والاعتماد على النفس

وبناء المسؤولية الاجتماعية، وهو في الوقت نفسه لا يستطيع أن يبتعد عن الوالدين؛ لأنهم مصدر الأمن والطمأنينة ومنبع الجانب المادي لديه. هذا التعارض يجعل المراهق طريد مجتمع الكبار والصغار، إذا تصرف كطفل سخر منه الكبار وإذا تصرف كرجل انتقده الرجال، مما يؤدي إلى خلخلة التوازن النفسي للمراهق ويزيد من حدة المرحلة ومشكلاتها.

هناك أيضًا صراع بين رواسب مرحلة الطفولة ومتطلبات الرجولة أو الأنوثة وصراع بين طموحات المراهق الزائدة وبين تقصيره الواضح في التزاماته، والصراع الديني بين ما تعلمه من شعائر ومبادئ ومسلمات وهو صغير وبين تفكيره الناقد الجديد وفلسفته الخاصة للحياة، وصراعه الثقافي بين جيله الذي يعيش فيه بما له من آراء وأفكار والجيل السابق.

ثانيًا- التحديات السلوكية، ومنها:

– الاغتراب والتمرد: فالمراهق يشكو من أن والديه لا يفهمانه، ولذلك يحاول الانسلاخ عنهما برفض مواقف وثوابت ورغبات الوالدين؛ كوسيلة لتأكيد وإثبات تفرده وتمايزه، وبالتالي تظهر لديه سلوكيات التمرد والمكابرة والعناد والتعصب والعدوانية.

– العصبية وحدة الطباع: حيث يتصرف من خلال عصبيته وعناده، يريد أن يحقق مطالبه بالقوة والعنف الزائد ويكون متوترا بشكل يسبب إزعاجًا كبيرًا للمحيطين به.

– الخجل والانطواء: فالتدليل الزائد والقسوة الزائدة يؤديان إلى شعور المراهق بالاعتماد على الآخرين في حل مشكلاته. لكن طبيعة المرحلة تتطلب منه أن يستقل عن الأسرة ويعتمد على نفسه، فتزداد حدة الصراع لديه ويلجأ إلى الانسحاب من العالم الاجتماعي والانطواء والخجل.

– السلوك المزعج: والذي يسببه رغبة المراهق في تحقيق مقاصده الخاصة دون اعتبار للمصلحة العامة، وبالتالي قد يصرخ، يشتم، يسرق، يركل الصغار ويتصارع مع الكبار، يتلف الممتلكات، يجادل في أمور تافهة، يتورط في المشاكل، يخرق حق الاستئذان ولا يهتم بمشاعر غيره.

وأخيرا لأن مرحلة المراهقة تعد مفصلًا مهمًّا في حياة الأبناء، يجب على الأهل استثمار هذه المرحلة إيجابيًّا، وذلك بتوظيف وتوجيه طاقات المراهق لصالحه شخصيا ولصالح أهله وبلده والمجتمع ككل. وهذا لن يتأتى دون منح المراهق الدعم العاطفي والحرية ضمن ضوابط الدين والمجتمع والثقة وتنمية تفكيره الإبداعي وتشجيعه على القراءة والاطلاع وممارسة الرياضة والهوايات المفيدة وتدريبه على مواجهة التحديات وتحمل المسؤوليات واستثمار وقت فراغه بما يعود عليه بالنفع.

د. حسن عبد الكريم
أستاذ علم النفس

الفصل الأول

على عتبة المراهقة

سنة الطبيعة– في الإنسان والحيوان– أن الوثوب يتطلب شيئا من الثبات قد يخاله المرء جمودا أو شيئا من التراجع قد يحسبه المرء تقهقرا؛ لكي تكون القدرة على الوثب والقفز أعظم وأكبر.

وكلنا مارسنا لعبة "النطة". ولعلنا نذكر كيف كنا نرجع إلى الوراء خطوات أو على الأقل نثبت قليلا في مكاننا تحفزا للوثبة.

وكما تنطبق هذه الظاهرة– ظاهرة التحفز للوثوب– على الناحية البدنية– تنطبق أيضًا على الناحية النفسية؛ ففي الانتقال من مرحلة من مراحل النمو النفسي إلى مرحلة تالية يلاحظ المدقق الخبير أحيانا شيئا من التراجع النفسي قبل أن يقفز المرء إلى المرحلة التالية، كتراجع الطفل الذي أصبح في سن المدرسة مثلا إلى التعثر اللغوي بما لا يتناسب وحصيلته اللغوية في تلك السن، أو كارتداده إلى غير التعثر اللغوي من مظاهر المرحلة التي هو على وشك أن يتخطاها إلى غيرها، كالتعلق باللعب والدمى أو العودة إلى التبول اللاإرادي وغيرها من مظاهر الطفولة الأولى.

ولكن الجمود– أو التحفز– يتجلى أكثر في الفترة التي تسبق البلوغ في المراهقة وهي الفترة التي تسمى بفترة الكمون أو فترة الطفولة الهادئة

والتي تستمر في المعدل من الخامسة إلى الثانية عشرة.. فتلك فترة يبدو أنها متحررة من مظاهر النشاط الجنسي تحررا تاما؛ فنشاط الطفل فيها يتجه إلى المدرسة واللهو والرفاق ونظرته خلالها إلى الجنس الآخر، نظرة زمالة ورفقة سواء في اللهو أو في المدرسة، ولا يكاد ذهنه يعي من الفوارق بينه وبين الفتاة سوى الفارق النوعي، أي أنه ذكر وهي أنثى، دون أن يكون لذلك الوعي مدلول جنسي يحس له صدى في نفسه.

كذلك تمتاز هذه الفترة الهادئة بانتصار الذات– التي يحس المرء بوجودها في أواخر فترة الطفولة، أي في نحو الثالثة– على الميول الغريزية، كالنزعة إلى العدوان والميول الجنسية إلى الوالد المخالف جنسًا (ميل الولد نحو أمه وميل البنت نحو أبيها).. أنه ينتصر في فترة الكمون على تلك الميول الجنسية ويفلح في قمعها أو كبتها– في الغالب– تكيفا منه لنظم المجتمع وتقاليده ومقاييسه.

ثم حين يقترب المرء من البلوغ، فيما بين العاشرة والثانية عشرة، تتجلى رويدا عملية التحفز التي أسلفنا الإشارة إليها. بل هي في الواقع تكون عملية تحفز ومقاومة في آن واحد. تحفز تدفع إليه الطبيعة توطئة للانتقال إلى مرحلة تالية من مراحل النمو ومقاومة نفسية تبذلها الذات ضد تحفز الميول الجنسية ويطلق على فترة التحفز والمقاومة اسم ما قبل المراهقة (Preadolescence) أو ما قبل البلوغ (Prepubescence)، وهو يستمر عادة من سن العاشرة إلى الثانية عشرة.

ـ علامات ما قبل البلوغ:

ولهذه الفترة القصيرة التي تفصل بين دور الكمون وبداية البلوغ، علامات مميزة واضحة؛ لعل أبرزها نفور الفتى من ملاعبة الفتيات وكذلك نفور الفتاة من ملاعبة الفتيان. أي بمعنى آخر ازدياد كل منهما إحساسا بجنسه..

فالفتى الذي كان يتخذ من الفتيات رفقاء في اللعب ولا يجد في ذلك غضاضة، يستشعر الحرج أو يستهدف لتهكم أقرانه عليه، إذا دأب على مشاركة الفتيات في اللعب واللهو وكذلك الحال مع الفتاة، وإن كان نفورها من الفتى يخفي إحساسا متزايدا بتفوقه عليها ويدفعها هذا الإحساس إلى محاولة التشبه به في مجتمعها الأنثوي الخاص؛ فالفتاة في هذه الفترة تميل إلى النشاط الفائق، كالنشاط الرياضي، مثلا، متشبهة في سلوكها بمسلك الفتيان الخشن، نزاعة إلى التسابق والمنافسة، والانتصار على الفتيان في شتى ضروب النشاط.

على أن هذا المسلك من جانب الفتاة، ليس في الواقع دليلا على نقص أنوثتها بقدر ما هو دليل على التحفز لاستقبال مرحلة الأنوثة الكاملة ومقاومة الميول الجنسية، بالتعبير عن رغبتها الطفلية القديمة في أن تكون ولدا وباتخاذ دور الولد كدرع واقية من أخطار هذه الميول!

ومن علامات ما قبل البلوغ، فضلا عن اشتداد إحساس المرء بجنسه، إحساس المرء بالفروق الفردية التي تميزه عن أقرانه. ففي هذه الفترة

تظهر بوادر الاستعدادات المختلفة بعد أن تكون المدرسة قد ساهمت في إبرازها ويحس المرء بمواهبه الشخصية، سواء كانت عقلية أو فنية أو جسمية أو كانت من قبيل الأماني والآمال التي لا يشاركه فيها غيره.

وباقتراب المرء من البلوغ، تزداد أيضًا رغبته في الاستقلال وحاجته إلى أن يغدو شيئا مذكورا؛ ومن ثم فهو يسعى إلى إعادة النظر في الروابط التي تربطه بأهله ورفقاء طفولته لينتبذ منها ما لم يعد متفقا مع نظرته الجديدة إلى نفسه وإلى الأمور. كذلك يعمد إلى مراجعة الحقائق التي كان يتقبلها عن طيب خاطر، فينبذ ما لا ينسجم منها مع وضعه الجديد..

فما يصدر إليه من أوامر والديه، مثلا، لا يتقبله على علاته ويطيعه على الفور، بل يعمد إلى تحليله ووزنه ويتمرد على ما يعده خليقا بطفل صغير..

كذلك ينصرف عما كان يستمتع به كطفل من اصطحاب الأسرة له في الترويح والنزهة أو هيمنتها على شراء ملابسه وحاجياته ويتوق إلى الذهاب إلى "السينما" أو الخروج للنزهة مع أقرانه. أي أنه بمعنى آخر، يتمرد على كل ما يستهدف جعله تابعا أو يقيده بقيود أو يفرض عليه فروضا، ويتوق إلى ما يشعره باستقلاله وفرديته ويحرره من حياة الطفولة التي يلعب فيها الخيال– لا الواقع– الدور الأكبر!

على أنه ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن الفتى، برغم رغبته في الاستقلال وحاجته إلى الإحساس بفرديته وأهميته والسيطرة على الوسط

المحيط به، يرغب في الوقت نفسه أن يظل طفلا مستمتعا بروابطه العاطفية بوالديه وبالتبعية التي لا تحمله مسؤولية ولا تلقي عليه تبعة!. ومن ثم فما يبديه من نشاط ينبئ عن رغبته في إخضاع البيئة التي تحيط به، إنما يخفي في الحقيقة صراعا داخليا يحس له في نفسه قلقا غامضا. ثم يصبح هذا الصراع والقلق واضحين جليين عندما تحل الأزمة: أزمة المراهقة.

ـ البلوغ والمراهقة

وقد استخدمت فيما سلف لفظي البلوغ والمراهقة كمترادفين، والواقع أن ثمة اختلافا فنيا بين اللفظين؛ فكلمة "بلوغ" (Puberty) تطلق فقط على المظاهر البدنية الظاهرة والتغيرات الفسيولوجية التي تطرأ على المرء في سن البلوغ– وسنتحدث عنها فيما يلي– أما كلمة مراهقة (Adolescence) فتطلق على مرحلة كاملة تبدأ بالبلوغ وتستمر حتى مرحلة النضج، أي فيما بين الثانية عشرة والعشرين، وتشير إلى كافة خصائص المرحلة، جسمية كانت أو نفسية أو عقلية.. ويوسع بعض العلماء فترة المراهقة فتشمل أيضا الفترة القصيرة التي تسبق البلوغ، أي تشمل على وجه العموم ما بين سن العاشرة وسن العشرين.

أما البلوغ– وهو الوجه البيولوجي للمراهقة– فيقسمه العلماء إلى ثلاثة أقسام، هي:

١ – **ما قبل البلوغ** Prebuscence **:** ويشمل الفترة التي تظهر فيها بشائر النمو الجنسي والتي يطلق عليها اسم "الخصائص الجنسية الثانوية".

٢- **البلوغ** Pubescence**:** ويشمل الفترة التي تبدأ فيها الغدد الجنسية في أداء وظيفتها وإن كان المراهق لم ينضج بعد نضجا كافيا لممارسة العلاقة الجنسية.

٣- **ما بعد البلوغ** Postpubescence: وهي الفترة التي يمكن للشاب فيها أن يؤدي وظيفته التناسلية كاملة.

ـ الخصائص البدنية للبلوغ:

حين يولد الطفل، لا تكون هناك علامة تميز جنسه سوى الأعضاء التناسلية الظاهرة. أما فيما عداها، فلا يكون ثمة فارق مميز بين الجنسين ولهذا تسمى الأعضاء التناسلية بالخصائص الجنسية الأولية.

وتظل الأعضاء التناسلية الشيء الجوهري المميز للجنسين- فيما عدا الأشياء التقليدية التي يميز بها المجتمع بينهما كالثياب وطريقة قص الشعر وغيرها- حتى يقتربا من طور البلوغ وكلما اقتربا من هذه المرحلة، ظهرت خصائص طبيعية أخرى تميز من حيث الشكل بين الجنسين ثم تكتمل هذه الخصائص الأخرى في سن البلوغ ويصبح الفارق بين الجنسين واضحًا متميزًا. وهذه الخصائص الأخرى تسمى بالخصائص الجنسية الثانوية وهي- في الفتى- تتمثل في خشونة الصوت وظهور الشعر على مناطق معينة من الجسم كالوجه والشارب والعانة. وتتمثل في الفتاة في استدارة الجسم وكبر الثديين وظهور الشعر أيضا على مناطق معينة، كتحت

الإبطين والعانة. كما يطرأ تغير من حيث الحجم على الأعضاء التناسلية في الجنسين.

هذا من ناحية التغيرات البدنية الظاهرة وثمة تغيرات فسيولوجية تصاحب هذه التغيرات البدنية وتلعب الدور الأكبر في تحفيز سلوك المراهق وإحساسه وتفكيره وتلك هي التغيرات التي تطرأ على الغدد الجنسية، وهي الخصيتان في الرجل والمبيضان في المرأة، وعلى غدد الجسم الأخرى وأهمها النخامية في قاع المخ والدرقية في الرقبة والغدتان الأدريناليتان وهما فوق الكليتين؛ وهي الغدد التي تسمى بالغدد اللاقنوية أو الغدد الصماء أو الغدد ذات الإفراز الداخلي Endocrine. ففي طور البلوغ يزداد نشاط هذه الغدد وتزداد إفرازاتها التي تسمى بالهرمونات. ولكل هرمون تفرزه هذه الغدد دور معين يؤديه في عمليات الجسم المختلفة. أما هرومونات الغدد الجنسية بالذات– الهرمونات الجنسية– فهي التي تتحكم في ظهور الصفات الجنسية الثانوية، أي أن ظهور هذه الصفات رهين بنشاط الغدد الجنسية وإفرازها. ولو فرض أن استئصلت الخصيتان مثلا– الغدتان الجنسيتان للرجل– لامتنع ظهور الخصائص الجنسية الثانوية، وبقى الرجل بعد البلوغ رفيع الصوت، ناعم الوجه، ضامر الأعضاء التناسلية، فاقد الرغبة الجنسية، بل لاقترب شبها بالإناث من حيث اكتناز الجسم واستدارته.

وكذلك الحال في الإناث، فالهرمونات الجنسية التي تفرزها الغدتان الجنسيتان للأنثى– وهما المبيضان– هي المسؤولة عن ظهور الخصائص

الجنسية الثانوية ولو حدث أن استئصل المبيضان قبل البلوغ، لما حاضت المرأة وبقيت ضامرة الأعضاء التناسلية والثديين.

وكنتيجة لنشاط الغدد الجنسية في الذكر والأنثى في فترة البلوغ يصبح الرجل قادرا على إفراز المني وتصبح المرأة قادرة على الحيض، وبهذا يكونان قد تهيأ لأداء وظيفتهما الكبرى في الحياة وهي حفظ النوع عن طريق التزاوج والتناسل.

وسن البلوغ وإن كانت تحدد في المعدل بنحو الثانية عشرة إلا أن عوامل الجو والتغذية والصحة أو المرض، تؤثر في الإسراع بالبلوغ أو تأخيره وتدل الإحصاءات المختلفة على أن الإناث يصلن إلى البلوغ عادة فيما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة وأن الذكور يصلون إلى البلوغ عادة بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة.

وليس مجرد الوصول إلى البلوغ، أي إفراز المني في الذكور والحيض في الإناث، دليلًا على أن الجنسين قد تهيأ لأداء وظيفتهما التناسلية، وإنما لابد من مرور وقت كاف لينضج فيه المراهق أو المراهقة جنسيا وانفعاليا ليصبح أهلا لأداء وظيفة التناسل.

ـ الخصائص النفسية للمراهقة:

ثمة ثلاث أزمات نفسية في حياة المرء؛ **الأولى:** إحساسه بذاته وانفصاله نفسيا عن أبويه، وهي أزمة تحدث في الطفولة:

الأولى في نحو الثالثة، حين يعي الطفل ذاته، ويرى نفسه شيئا مستقلا له كيان يتفاعل مع من حوله.

والثانية: حين يتهيأ للاستقلال بنفسه وبناء مجتمع خاص به، وهذه هي أزمة المراهقة.

والثالثة: حين تضمحل قدرته على أداء وظيفته التناسلية، وهي أزمة الشيخوخة، أو كما تسمى أحيانا "سن اليأس".

والخصائص النفسية للمراهقة– التي سنتحدث عنها فيما يلي من فصول الكتاب– إنما يدفعها عاملان رئيسان:

الأول: العامل البدني الذي يحفز الرغبة الجنسية، وهو العامل الذي تحدثنا عنه في كلامنا عن الخصائص البدنية للبلوغ ويكون من نتيجة نشاط الغدد الجنسية وغدد الجسم الأخرى أن يشعر المرء برغبة جنسية لا مهرب له من الشعور بها.

والثاني: المشاعر والانفعالات والاتجاهات الذهنية التي تقوم على أسس هذه الرغبة الجنسية والتي يصبغها ويلونها ما ورثه المرء وما اكتسبه من اتجاهات انفعالية وذهنية.

على أنه مهما تكن أزمة المراهقة، فهي مرحلة من مراحل النمو إذا أحسن إعداد الطفل لها. وإذا أعين المراهق على إحسان التكيف لها، تسنى له أن يجتازها بسلام وينتقل منها إلى مرحلة النضج متحررًا من الرواسب التي قد تشوب نفسيته وتؤثر في سلوكه وشخصيته، لو أنه لسبب من الأسباب، تثبت على المراهقة ولم يتحرر منها.

وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن الخصائص النفسية للمراهقة، أذكر مثلا للتدليل على مدى أثر الخصائص البدنية للمراهقة في نفسية المراهق. فقد أجرى كونكلين Conklin[١] بحثا على مجموعة من البلاغات تضم ٤٧٥ فتاة ليستطلع أثر خصائص البلوغ في نفسياتهن، فأسفر البحث عن النتائج التالية:

٥١% أصبن بالدهشة عند ظهور الحيض لأول مرة.

٢٤% كن غير مباليات.

١٢% أصابهن الحزن.

٧% كن منزعجات.

٦% كن فخورات.

أي بمعنى آخر، يمكن القول إن ٣٠% فقط (إذا جمعنا اللواتي كن غير مباليات) و(اللواتي كن فخورات) من المجموعة كلها قد أحسن

---

(١) الدكتور مصطفى فهمي "سيكولوجية الطفولة والمراهقة".

إعدادهن لاستقبال فترة المراهقة، للتكيف لها.. وأن ١٩% على الأقل (إذا جمعنا اللواتي أصابهن الحزن والانزعاج وصرفنا النظر عن اللواتي أصبن بالدهشة فقط) فقد أصابهن البلوغ بأزمة نفسية تختفي وراء كلمتي "الحزن" و"الانزعاج"!

والواقع أن ما سبب الأزمة في هذه المجموعة لم يكن الحيض في ذاته، بل الحيض كعلامة على مرحلة البلوغ بصفة عامة.

فما هي أزمة المراهقة، وما مظاهرها؟ وماذا يعتمل خلالها في نفس المراهق؟ وكيف تنعكس هذه الأزمة على سلوك المراهق وإحساساته ومشاعره؟ هذا ما سنحدثك عنه في الفصول التالية.

الفصل الثاني

الثورة من أجل الاستقلال

سمينا إحساس المرء لأول مرة بأن له ذاتا مستقلة عن ذوات من حوله، في سن مبكرة من طفولته– حوالي الثالثة تقريبا– بمولد الذات، وتلك هي الأزمة الأولى في حياة المرء. وشبيه بهذه الأزمة، أزمة المراهق التي يحس فيها المرء بنمو جسمه واستكماله عناصر الرجولة– أو الأنوثة– وتأهبه للاستقلال بنفسه في الحياة وأداء وظيفته الطبيعية فيها، وهي التناسل، وتكوين مجتمع خاص به وتعاونه مع المجتمع الكبير على نطاق واسع معتمدا على قدراته وإمكانياته. ويمكن أن نسمي هذه الأزمة الثانية، بأزمة "اكتشاف الذات".

أما أن اكتشاف الذات أزمة، فذلك بحكم التغيرات الفجائية التي يراها المرء تطرأ على جسمه ومشاعره وتفكيره وهي تغيرات تتعارض مع نظرته السابقة إلى نفسه ومن حوله وتتضارب مع ما ألفه واكتسبه من اتجاهات ذهنية ومبادئ، ومثل استقاها في زمن لم يكن له فيه عهد بهذه التغيرات الجسمية والفسيولوجية والانفعالية والذهنية التي يراها تطرأ عليه الآن. أنه يواجه بتيارات من الشعور والتفكير ينبغي أن يكيف لها نفسه تكيفًا لم يسبق له أن مارسه وهذا هو مبعث الأزمة. ولأنه يلمس في نفسه رغبات ومشاعر جديدة واتجاهات ذهنية جديدة، هي في الواقع لم تأت من

الخارج، وإنما من الداخل بمقتضى عملية النمو الطبيعي، لهذا يصح أن نسمي مرحلة المراهقة بمرحلة اكتشاف الذات..

بينما الواقع أن اكتشاف الذات ثم تقبلها بكل ما تتصف به من محاسن ومساوئ ومحاولة التكيف مع الوسط بهذه الذات على علاتها، إنما يستغرق فترة المراهقة كلها ولا يتبلور الاكتشاف وتتضح معالمه إلا في مرحلة النضج.

ذلك أن بداية المراهقة تشبه بداية العاصفة التي لا يستطيع المرء فيها أن يستبين الأرض والسماء وما بينهما ثم تخف حدة هذه العاصفة رويدًا وتأخذ ملامح الأشياء تستبين شيئا فشيئا حتى تتضح وتتجلى.

ـ عناصر العاصفة:

وإذا حللنا هذه العاصفة وجدناها مزيجًا من عناصر مختلفة، تماما كما تتجمع في العاصفة الطبيعية الرمال والأتربة والرياح وبخار الماء وغيرها من العناصر. وفي وسعنا أن نحلل عاصفة المراهقة إلى أربعة عناصر رئيسية، هي:

١- العنصر الانفعالي.

٢- العنصر الاجتماعي.

٣- العنصر العقلي.

٤- العنصر الجنسي.

والواقع أنه لا يمكن الفصل بين هذه العناصر فصلا تاما، فهي كلها تندمج في وحدة ويؤثر كل عنصر منها في سائر العناصر، تماما كالعاصفة تراها جملة أو تحس بأثر واحد لها، ولكنها في الواقع تتألف من عدة عناصر.

ولكننا على سبيل التبسيط والتحليل سنتناول كل عنصر على حدة. ونبدأ هنا بالعنصر الأوضح في حياة المراهق وهو العنصر الانفعالي.

وليست أسباب هذا العنف الانفعالي نفسية خالصة، بل أن للعامل البدني أثرا كبيرا؛ فإحساس المرء بنمو جسمه وازدياد نشاط غدده يساهمان مساهمة فعالة في هذه القلقلة الانفعالية التي يستشعرها المراهق ويمهدان لقيام الأحاسيس والانفعالات المتناقضة المتذبذبة، كأن يشعر المراهق بالخجل مثلا من جسمه النامي وبالزهو والاعتداد به في الوقت نفسه!

وبجانب العامل البدني الفسيولوجي، هناك العامل النفسي الذي يمكن إيجازه في عبارة واحدة هي "ثورة المراهق في سبيل التحرر والاستقلال".

فحين ينظر الفتى فيرى جسمه قد امتلأ وأصبح مساويا في الطول والعرض لأجسام الرجال وصوته قد اخشوشن وشعر شاربه قد نما، يحس أنه لم يعد ذلك الطفل الذي تسيره البيئة كيفما يتراءى لها وتملي عليه تعاليمها وتقيده بقيودها وتفرض عليه فروضا أخلاقية واجتماعية وتقليدية، لا تطلب منه أن يمحصها وإنما أن يخضع لها. وفي الوقت نفسه يرى أن

البيئة– في الأغلب– لم تغير معاملتها له ولم تدرك إحساسه ولم تستشف رغباته ولم تشبع مطالبه الحديثة التي تمليها المرحلة التي انتقل إليها.

وإذًا فطبيعي أن يكون رد الفعل لهذا كله الثورة الانفعالية الواضحة.

والبيئة التي قصدنا إليها هي البيئة العامة للفتى المراهق: الأسرة، المدرسة، الأصدقاء.. وثورة المراهق موجهة إلى مكونات هذه البيئة جميعا؛ فأفراد أسرته– على حد تعبيره– "لا يفهمونه". والمدرسة– على حد تفكيره– لا تعامله كفرد مستقل، وإنما كفرد لا وزن له في مجتمع المدرسة الكبير.. والأصدقاء– كما يرى– لا يقدرون مواهبه وإمكانياته وامتيازه عليهم.

هذا هو ما يجرى به لسان المراهق علانية أو يدور في سريرته وترجمته الصريحة رغبة جامحة في أن يعترف له بكيانه وفرديته واستقلاله.. رغبته في أن يحس أنه شيء مذكور في أن يعبر عن ذاته ويؤكدها.

على أني أحب هنا أن أبرز نقطة مهمة، تلك أن ثورة المراهق على الأسرة مثلا، لا تعني بالضرورة أن نظام الأسرة وعاداتها وطرق تفكيرها وطريقة معاملتها له تستحق الثورة والنقد فعلا.. كلا؛ فالمراهق لابد له أن يثور ويتمرد، حتى ولو كان نظام الأسرة لا يدعو إلى الثورة والتمرد؛ فالثورة في الواقع من أجل تأكيد الذات والتعبير عنها. كأنما يريد الفتى أن يقول لمن حوله: "أنا لم أعد ذلك الطفل الذي عهدتموه. إن لي شخصيتي المستقلة"؛ وهو يريد أن يقول هذا– على الأخص– لنفسه!

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، ليست ثورة المراهق الانفعالية دليل شذوذ أو جنوح أو انحراف.. إنها خاصية طبيعية من خصائص المرحلة التي حل بها وليست ثورة مبيتة يدفعها سوء النية..

ولما كانت الثورة خاصية طبيعية من خصائص المراهقة تستهدف التحرر من القيود وتأكيد الذات، فلا عجب أن تنصب على أقرب الناس إلى قلب المراهق وأحبهم إليه.. بل إن ثورته على هؤلاء بالذات تكون أعنف وأشد. ذلك أن الحب الذي يحيطونه به والرعاية التي يشملونه بها والحماية التي يفرضونها عليه، تغدو في نظره قيودا تقيده وهو الذي ينشد التحرر من القيود جميعا. وتصبح تذكره بعهد الطفولة الذي لم تكن له فيه شخصية وكيان وهو الذي يبتغي إثبات كيانه وإبراز شخصيته.

ولا تتجه الثورة إلى الخارج فقط كالعائلة والمدرسة والأصدقاء فحسب، بل أيضا إلى الداخل.. إلى النفس.. ففي بداية المراهقة يستشعر المراهق خوفا من المرحلة الجديدة التي انتقل إليها والتي توحي إليه بأنه أصبح "رجلا" ينبغي أن يعتمد على نفسه ويكون من نتيجة هذا الخوف أن يتشبث– في بعض المواقف– بالسلوك الطفلي استمساكا منه بالحب والحماية والرعاية التي ألفها في طفولته.. ولكن السلوك الطفلي يتبدى له مناقضا لهذا الجسم النامي وهذه الدلائل التي تشير كلها إلى اكتمال الرجولة، وعندئذ تتجه الثورة إلى النفس التي تتشبث بالطفولة ومقوماتها.

فهذه العوامل التي أسلفناها، ونكررها هنا مرة أخرى، وهي:

١- النمو البدني والنشاط الغددي.

٢- الرغبة في التحرر وتأكيد الذات.

٣- الرغبة في الاستمساك بالطفولة الخالية من التبعات والمسؤوليات.

هذه العوامل هي التي تتحالف لإظهار ثورة المراهق الانفعالية التي تتجه إلى الخارج والداخل على السواء.

ولعلك تذكر أن ثورتك كانت تنفس عن نفسها في المهم والتافه من الأمور على السواء!.. كنت تغضب إذا تأخر الطعام عن موعده وتثور إذا وجدت قميصك غير مكوي وتغلي كالمرجل إذا تدخل أبوك وأمك في شؤون دراستك وغضبك في كل حال غضب طاغ لا يتناسب وأهمية الموقف!

بل إن كل ما يقع عليه نظرك كان موضع ثورة: طيبة والدك تدفعك إلى الثورة عليه واتهامه باللين والتساهل!. وشدته تحفزك إلى الثورة عليه واتهامه بأنه ديكتاتور طاغية وأمك إذا كانت مسيطرة ثرت عليها واتهمتها بالتحكم وإذا كانت لينة اتهمتها بالخضوع والامتثال.. أخوك الأصغر إذا كان يعامل بالرقة ثرت على أبويك واتهمتهما بإفساده وإذا كان يعامل بالشدة اتهمتهما بالجهل وسوء التدبير!

وثورتك قد تكون إيجابية صريحة، بحيث تجهر برأيك الصريح، وقد تكون سلبية، تنفس عنها إذا خلوت لنفسك عن طريق أحلام اليقظة أو عن طريق المذكرات وقد تجمع في أغلب الأحيان بين الأمرين، أي تكون إيجابية وسلبية معا.. فتنفس عنها بالجهر أحيانا وأحيانا أخرى بأحلام اليقظة وتدوين المذكرات.

ولو أنك رجعت إلى مذكراتك، لوجدت أنها تتركز حول مبادئ محددة: الناس لا يفهمونك ولا يقدرونك.. الناس مخطئون لا يستجيبون لدعوة الإصلاح التي تجيش بها نفسك.. الناس يحاولون أن يفرضوا عليك فروضًا لا تتفق مع مواهبك ومميزات شخصيتك.. الناس يختطون لك خط سير لا يتسق مع قدراتك وميولك..

وهكذا.. ثورة على السلطة وعلى القيود ورغبة في فرض الذات والإحساس بالشخصية.

وهل فكرت في الهرب من منزلك؟ أكثر المراهقين قد دارت بخاطرهم هذه الفكرة أو هموا بها أو نفذوها فعلا. وليس الهرب إلا متنفسا آخر للثورة. الثورة في هذه الحالة على سلطة العائلة وقيودها..

ونزعة الهرب أكثر ما تكون اتضاحا في أبناء الأسر المتشددة والأسر المتساهلة على السواء. وهروب المراهق من الأسرة المتشددة سببه واضح؛ وهو التمرد على السلطة وعلى المجتمع الذي لا يريد أن ينظر إليه على أنه رجل مستقل له كيانه. أما الهروب من الأسرة المتساهلة، فسببه أن الأسرة

بتساهلها معه أو بتدليلها له، قد عجزت عن إعداده لمرحلة الرجولة والاعتماد على الذات، ومن ثم فهو يريد أن يبتعد عن الأسرة ليكتسب ما افتقده فيها من صفات الرجولة.

على أن للهرب مدلولا نفسيا آخر غير مجرد الابتعاد عن مصدر السلطة؛ فالمراهق قد يهرب أصلا من الضغط ولكنه عندئذ يرضي نزعة أخرى في نفسه: نزعة إلى الاعتراف بقيمته وقدره.. فهو سواء هم بالهرب أو داعب فكرته في أحلام يقظته، يحلم بأن والديه وأفراد أسرته سيبحثون عنه في كل مكان. بل سيحزن الأب وستلتاع الأم وقد ينشران له نشرة في الجرائد يناشدانه فيها أن "ارجع وكل مطالبك مجابة" وفي ذلك من إشعار بقيمته ما فيه!. وهو في الهرب سيسعد بالعزلة التي يهفو إليها كل مراهق لتؤنسه فيها أحلام المستقبل، حيث تحقق له في عالم الجهل كل آماله ورغباته وسيشبع نهمه إلى المخاطرة التي هي مطمع كل مراهق: المخاطرة التي ترمز إلى اكتشاف المجهول وارتياده، أي أن الهرب ينطوي في الواقع على تحقيق تام لأماني الفتى المراهق ومطامحه.

هذا إن كان الفتى هاربا من الضغط والتشدد. أما إن كان هاربا من اللين الذي رأى أنه أضر به وأعجزه عن بلوغ الرجولة، فإن هربه قد ينطوي على الرغبة في الانتقام ممن سلبوه هذه المقدرة.

ومرة أخرى أريد أن أكرر هنا أن ثورة المراهق، مهما تكن وسائل التنفيس عنها، ليس معناها أن المراهق قد انتزع من قلبه حبه لأبيه أو لأمه

أو أنه يضمر لهما الكراهية والنفور؛ وإنما ثورته شيء لا حيلة له فيه وهو مدفوع إليها بدوافع أقوى من أن يسيطر عليها.

فالمراهق في الواقع، يكون في بداية المراهقة، هش الذات ضعيفها أو يكون أشبه بالمحارب الذي يحارب في أكثر من جبهة بأسلحة قديمة بالية. إنه يحارب الإحساس بالنقص وقد أصبح يشعر شعورا كاملا بذاته وبانفصاله عن الأسرة ويحارب الإحساس بالذنب الذي تحفزه إليه رغباته الجنسية الجارفة التي لا يملك لها ردعا كما يحارب انسياقه إلى أمن الطفولة وحمايتها.

وما لم تقدر البيئة، سواء كانت الأسرة أو المدرسة، في المراهق هذه العوامل التي تتنازعه ولم تحطه بالفهم والتقدير وتغذي فيه رغبته في الاستقلال والاعتداد بالذات والاعتماد عليها، فالمراهق خليق بأن ينهزم في المعركة وتعقد الغلبة للإحساسات الهدامة بالنقص والذنب.

والمراهقة تأتي عادة في الوقت الذي يكون فيه المراهق منهمكا في التحصيل المدرسي الذي يتوقف عليه مستقبله في الحياة. ومن هنا كان من الواجب أن يقدر الآباء العبء الكبير الذي يرزح المراهق تحته، العبء المزدوج: عبء المراهقة بدوافعها وإحساساتها وتقلباتها وعبء التحصيل الدراسي..

والمراهق بحكم الفترة التي يجتازها، حساس للنقد، ثائر على السلطة. والنقد الذي قد يوجه إلى سيره الدراسي أو التشدد في مطالبته بالاستذكار

والتفوق، كفيل بأن يؤجج ثورته وقد يفضي أحيانا إلى حلقة مفرغة من التعثر الدراسي فالنقد، فالتعثر، حتى يفقد المراهق كل ثقة بنفسه ويغدو فريسة سهلة لمركب النقص.. بل قد يؤدي إلى تغير جوهري في حياة المرء المستقبلة، فقد تبلغ ثورة المراهق إلى حد الامتناع عن المدرسة والالتجاء إلى وظيفة لا تناسب مواهبه وميوله وإمكانياته لا لشيء إلا الثورة على السلطة والنقد أو قد يتجه وجهة دراسية غير التي هو أهل لها بدافع التمرد على أبويه اللذين يزكيان له وجهة دراسية يريان أنها تتفق وميوله وقدراته وقد تكون كذلك حقيقة، ولكنه بدافع التمرد والثورة يختار وجهة أخرى، وبهذا يتغير مجرى حياته عما كان يمكن أن يغدو عليه!

إن المراهق، كالطفل تماما، وديعة في أيدي البيئة المتولية أمره وصحيح أنه أنضج عقلا من الطفل، ولكن الانفعالات العنيفة المتذبذبة المتناقضة التي لا حيلة له فيها تطغى على نشاط العقل– في بداية المراهقة على الأقل– وتحجب أثره.. ولهذا يكون أمر تجنبه مغبات الثورة وتهوين أثرها في نفسه ومعاونته على استكمال نضجه بتغذية رغبته في الاستقلال والتحرر والاعتماد على النفس، موكولا بالبيئة، مستندا إليها.

الفصل الثالث

رجل في مجتمع الرجال

تحدثنا عن العنصر الانفعالي من عناصر أزمة المراهقة، وقلنا إن انفعالات المراهق يمكن تلخيصها في عبارة واحدة؛ هي "الثورة من أجل استقلاله بذاته". وننتقل الآن إلى العنصر الثاني من عناصر العاصفة أو الأزمة وهو العنصر الاجتماعي.

وحاجة الإنسان إلى الانتماء لجماعة حاجة طبيعية وخاصية من خصائص الإنسان، وهي أصلا سلاح اتخذه الإنسان حين تجرد على مر مراحل تطوره التاريخي من الأظلاف والأنياب، ليذود به عن كيانه ووجوده.

ومن ثم، فسنة الطبيعة أن يكون الفرد عضوا في مجتمع يحس بالانتماء إليه ويتجاوب معه ويتكيف له كي يرضى عنه المجتمع ويدخله في زمرته، فيحس بالأمان والاطمئنان. لهذا كانت العزلة نقيض الطبيعة الإنسانية وخروجا عليها ولن تجد قط إنسانا يعتزل الناس ويحس في داخلية نفسه بالسكينة والرضى.

والطفل يولد وفي نفسه الميل إلى الاندماج في جماعة، ولهذا يسمى الطفل حيوانا اجتماعيا، بمعنى أنه ينطوي على القدرة أو الميل إلى أن ينتمي لجماعة حتى قبل أن ينضج عقله وتفكيره.

والتكيف للمجتمع هو جوهر السعادة الإنسانية؛ فلن يسعد الإنسان حقا حتى يرضى عنه المجتمع ولن يرضى عنه المجتمع حتى يرضيه، أي حتى يتعاون معه وينسجم مع نظمه وعاداته وقوانينه ويسخر حيويته، لا في سبيل مصلحة أثرة لا ترضى إلا ذاته، بل في سبيل مصلحة أكبر قدر من أفراد المجتمع الذي يعيش فيه. وأسعد الناس من وسعهم أن يسدوا خدمة حقيقية تتجاوز حدود المجتمع الذي ينتمون إليه في حدود البشرية جميعا!

والطفل يتعلم كيف يتكيف للمجتمع في وقت مبكر جدا من حياته ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه يبدأ ببداية العام الثاني من حياته!

والبيئة الملاصقة بالطفل– الأب والأم وأفراد الأسرة القريبون– هي المصدر الذي يستمد منه الطفل خبرته بما يرضى المجتمع أو يسخطه من سلوك؛ وهي الحقل الذي يتدرب فيه الطفل على التكيف مع هذا المجتمع المحدود، فيعدل من سلوكه ويكبح انفعالاته ليرضى هذا المجتمع الذي يحتاج لرضائه لإشباع حاجته إلى الأمن.

ولكن في الطفل، برغم أنه مخلوق اجتماعي، نزعة طبيعية أيضا إلى الاعتداء والمهمة الحقة للبيئة التي تحيط بالطفل هي تهذيب نزعاته العدوانية، لا حمله على كبتها!

يمكن القول إن الشخص السعيد هو الذي أحسن إعداده للتوافق مع المجتمع وتخلص في الوقت نفسه من رواسب نزعاته العدوانية الخليقة،

إن كبتت، أن تتجه نحو الإساءة إلى المجتمع أو تتجه إلى الشخص نفسه، فتدير في نفسه صراعا يسلبه السكينة والاستقرار.

وتوشك مرحلة المراهقة أن تكون تكرارا لمرحلة الطفولة المبكرة التي تتجلى فيها الخاصيتان اللتان أسلفناهما: الرغبة في الانتماء للمجتمع لاكتساب الإحساس بالأمن والاستقرار والنزعة إلى الاعتداء، التي هي مظهر لتأكيد الذات والإحساس بالكيان.

ولكن المراهق يختلف عن الطفل اختلافا بينا. فهو قد نما عقله وتفكيره ولا نقول نضج، فنضج العقل والتفكير قد يستغرق مرحلة المراهقة كلها ويزيد عليها. وهو قد جمع خبرات واكتسب قدرات وأصبح له رصيد كبير من العواطف والميول والاتجاهات، بعضها اكتسبه من خبراته الخاصة في المجتمعات التي خالطها– مجتمعات الأسرة، المدرسة، الرفاق– وبعضها فتقته له دراسته ومطالعاته.. ومن ثم فالمراهق خليق بأن تتأثر انفعالاته بالاتجاهات الذهنية وأن تتأثر اتجاهاته الذهنية بانفعالاته.

والمراهقة مرحلة تسبق النضج، فهي الفترة التي لابد فيها للفتى أن ينضج عواطفه وذهنه بمعاونة البيئة المحيطة به. وكمثل على ما نقول من تدخل العقل تدخلا كبيرا في انفعالات المراهق، أن حبه لوالديه لا يظل حبا قائما على الغريزة وحدها، بل هو يتخذ من نفسه موقف الحكم من سلوكهما، فينتقد ما يراه ضربا من الجهل مثلا، وإن كان هذا لا يعني أنه كف عن حبهما، وإنما يعني أن العقل بدأ يلعب دوره في حياته وبدأ يشق الطريق نحو النضج والاكتمال.

وكدليل آخر على أن العقل يبدأ زحفه نحو النضج ويتداخل في الوقت نفسه مع الانفعالات تداخلا بينا، أن المراهق يثور على النقد ويكره أن تبين له أخطاؤه ويمقت أن يوصف مسلك له بأنه طفلي تعوزه الخبرة والحكمة. وصحيح أنه تتدخل في قيام ثورة المراهق على النقد رغبته الانفعالية في تأكيد ذاته، إلا أن اعتزازه بعقله الذي بدأ يحس بأثره والذي شرع يزحف نحو النضج، يكون له دخل كبير أيضا في ثورته على النقد.

وفيما قبل المراهقة، كان الفتى ينظر إلى أبيه– كما تنظر الفتاة إلى أمها– على أنه شخص منزه عن الخطأ، كل ما يفعله هو الصواب بعينه وكان ينظر إلى الأسرة على أنها مجتمع مقدس لا تشوب أفراده شائبة. ولكنه مع زحف عقله إلى النضج، يرى في أبيه رجلا عاديا يخطئ ويصيب ويرى للأسرة أخطاء ومتاعب خليقة بأن تنتقد من أجلها.

فمهما تكن أوجه الشبه بين المراهقة والطفولة المبكرة، فإن المراهقة مرحلة متميزة بخصائصها وأهم هذه الخصائص اتجاه الانفعالات والتفكير جميعا نحو النضج.. (وسنتناول في الفصل التالي بالتفصيل مظاهر النشاط العقلي في فترة المراهقة).

يتبع ذلك أن تكيف المراهق للمجتمع ليس تكيفا انفعاليا فحسب، بل تكيف انفعالي وعقلي في آن معا.

ومجتمع المراهق لم يعد مقصورا على الأسرة التي كانت مجتمعه في طفولته المبكرة ولا على المدرسة– بالإضافة إلى الأسرة– كما كانت الحال

في طفولته المتأخرة، وإنما هو جمع إلى هذين المجتمعين، مجتمع الكبار عموما، الذين يرى أنه قد أصبح في زمرتهم بحكم ما طرأ على جسمه ومشاعره وتفكيره من تغيير.

ومشكلة تكيف المراهق للمجتمع هي أنه لا يريد تحقيق هذا التكيف على أساس خضوعه وامتثاله لكل ما يفرضه المجتمع، وإنما على أساس المساواة مع أفراد المجتمع. إنه لا يريد أن يكون توافقه مع المجتمع على حساب ذاته وشخصيته، وإنما أن يعترف له المجتمع بذاته وشخصيته.

ومع ذلك، فالمراهق لابد له من الإحساس بالانتماء للمجتمع، ومن ثم فليس أتعس من المراهق إذا قوبلت رغبته في التعبير عن ذاته وتأكيد شخصيته وتحقيق استقلاله، بالقمع والضغط وحمله على أن ينظر إلى الخضوع على أنه السبيل الأوحد لدخول زمرة المجتمع أو لاكتساب رضائه!

وقد رأينا كيف يعامل المراهق أفراد مجتمعه الأول– الأسرة– كيف يثور عليهم ويتمرد على سلطتهم ويسفه سلوكهم وينتقد تصرفاتهم؛ سعيا وراء الاستقلال والتحرر من القيود والفروض.

أما المدرسة فوضعها يختلف. ففيها من يمثل السلطة، وهم المدرسون، وفيها أيضا الرفاق الذين يعانون مثل أزمته ويجول بأنفسهم مثل رغباته ويدور فيها مثل أحاسيسه ومشاعره.

أما من يمثل السلطة في المدرسة، فهو خليق بأن يتعرض كذلك لثورة المراهق، فما سلطة المدرس إلا امتداد لسلطة الأسرة وهي في الحالين سلطة

يأنس المراهق في نفسه ميلا إلى التحرر منها لأنه لم يعد ذلك الطفل الصغير الذي يسير وفق ما يحلو للكبار تسييره!

بل هو قد يرى في سلطة المدرسة سلطة أشد من سلطة الأسرة؛ فالأسرة قد يكون في ميسوره أن يثور عليها ثورة صريحة مجاهرة ويفلح في الحد منها. أما سلطة المدرسة، فليس من سبيل إلى الحد منها. فهو ينبغي عليه الذهاب إليها في مواعيد محددة وأن يمكث بها وقتا محددا ويقبل كل ما يلقى عليه فيها من تعليمات ويمتثل لكل قيد تقيده به.. ومن ثم لا يكون أمام المراهق في أغلب الأحيان إلا السبيل السلبي للتعبير عن ثورته وتمرده على سلطة المدرسة ولا يكون أمامه إلا اصطناع الغرور أو الوقار المتكلف أو الاستهانة الداخلية بالمدرس، وهي تتمثل في الحادثة التالية التي يقصها شاب مراهق(٢):

"كنت دائما أنتقص من قدره كمدرس، لا أدري لذلك سببا، أهو عدم كفايته، أم عجزه عن ضبط الفصل، أم هو شيء آخر غير ذلك؟. وعلى كل حال، فهو رجل طيب قد يتفوه بألفاظ قد تصيب تلميذا يقبل الإهانة فيمر الموقف بسلام وقد تصيب آخر لا يحتمل مثل هذه الإهانات، وقد كنت من النوع الأخير، ولما كنت أتمتع بمركز ممتاز بين الطلبة والأساتذة، فإنني لم أقبل مرة ما وجهه إلي هذا الأستاذ من إهانة، خاصة أنني كنت أشعر أنها صادرة من شخص "لا يملأ عيني"! كبرت الإهانة في ذهني وظننت أنني إذا لم اقتص في الحال من الأستاذ، فقد يقلل

(٢) الدكتور عبد المنعم المليجي "النمو النفسي".

ذلك من قدري، فاحتججت وطلبت منه أمام الطلبة أن يعتذر، فزادني إهانة، فطلبت منه أن يرافقني إلى حجرة الناظر على قدم المساواة، فاستكبر ذلك وزاد في الإهانة، ولكني خشيت أن تسوء سمعتي عند الناظر الذي كان يقدرني، فوجدت نفسي ملجما لا أستطيع رد الإهانة، ولكنني قلت له باشمئزاز: "أنني لا أخشاك، بل أستطيع أن أرد عليك هذه الإهانات ولكنك تستعمل سلطتك كمدرس، ويكفيني أن هذا التصرف منك ليس من الشجاعة في شيء"..

فهذا المثل في الواقع صورة نابضة بالحياة لما يختلج في نفس المراهق من ثورة على السلطة ورغبة في تأكيد الذات والإحساس بالانتماء للمجتمع وصراع يعتمل في النفس بين مظاهر الطفولة ومظاهر الرجولة.

فالثورة على السلطة توشك أن تلمسها في كل كلمة من كلمات الفتى المراهق والرغبة في تأكيد الذات تراها في عبارة مثل: "ولما كنت أتمتع بمركز ممتاز بين الطلبة" والرغبة في الإحساس بالانتماء للمجتمع، ومجتمع الكبار خاصة، تستشفها من قوله: "خشيت أن تسوء سمعتي عند الناظر الذي كان يقدرني". أما الصراع بين مظاهر الطفولة والرجولة، فتراها في عبارات مثل "وظننت أنني إذا لم أقتص من الأستاذ فقد يقلل ذلك من قدري"، "وأنني لا أخشاك بل أستطيع أن أرد عليك الإهانات".

وواضح من قول الفتى المراهق أن تمرده على سلطة المدرس، قد اتخذت سبيلا سلبيا تمثل في اصطناع الحكمة والشعور بالاحتقار للمدرس ووصفه إياه بالجبن.

على أن المراهق إذا تمرد على سلطة المدرسة، فهو يزداد قربا من رفاق المدرسة وتصبح "للشلة" المصطفاة مكانة ممتازة في نفسه. ولا يعد التقرب من الرفاق الذين هم في مثل ظروفه تكيفا للمجتمع بالمعنى الصحيح، فالمجتمع الذي ينشد المراهق التكيف له إنما هو مجتمع الكبار وليس مجتمع من هم في مثل سنه.. ولكن للالتصاق الشديد بالرفاق في سن المراهقة سببا وجيها، ذلك أن هؤلاء الرفاق إنما هم امتداد لذاته، فهم يحسون بمثل ما يحس وتجيش أنفسهم بمثل ما تجيش به نفسه من أحاسيس ورغبات وتبادل هذه الأحاسيس والرغبات يسري عن المراهق ندمه على ثورته ويشعره أنه ليس فيما يصنع شاذا ولا وحيدا ويخفف عنه ما قد يستشعره من إحساس بالذنب جزاء تمرده على مصدر السلطة، سواء كان الأسرة أو المدرسة.

وفي بداية المراهقة، يكون المراهق ميالا إلى الانسياق للرفاق والامتثال لآرائهم واتجاهاتهم كي يحس أنه ليس وحيدا في الأزمة التي يجتازها. وهو عندئذ لا يدقق في اختيار الرفاق ولا ينظر نظرة الناقد إلى سلوكهم واتجاهاتهم. ولكنه بمضي الوقت وحين تخف حدة الثورة شيئا، يتجلى تأكيده لذاته في علاقته بالرفاق أيضا؛ فهو ينتقد تصرفاتهم أحيانا وتشجر بينه وبينهم الخلافات والخصومات أحيانا أخرى. وهو يعتزلهم ليخلو لنفسه حيث تصور له أحلام يقظته أنه أعز منهم نفرا وأرفع شأنا، وحيث يلتمس مثلا عليا يتقمصها، سواء كانت هذه المثل ممثلة في شخص واحد أو في جملة أشخاص. فهو يريد أن يكون في ذكاء فلان الذي عرف

بالذكاء، وأن تكون له الشخصية الساحرة التي تتمثل في "عمرو" من الناس والرزانة والوقار المأثوران عن "زيد" وهكذا.

وللمثل العليا التي يتصورها المراهق في عزلته أثر كبير في تكوين فلسفته في الحياة واختيار من يتعامل معهم ويصادقهم بعد ذلك من الرفاق وفي اختطاط منهج له في الحياة عموما. فضلا عن أنها تخفف كثيرا من حدة ثورته على الأسرة والمدرسة، إذ هو يتخذ من مثله العليا أبا وأساتذة روحيين يتأثر خطاهم ويحذو حذوهم.

وقد ذكرنا أن سلوك المراهق لا تمليه الانفعالات وحدها، بل يمليه العقل الزاحف نحو النضج أيضا. وتستطيع أن تلمس الأثر العقلي لمحاولة المراهق التكيف للمجتمع عموما في مظاهر عدة، منها مسايرة المجتمع فيما يرتدي من ثياب والتضامن معه فيما يقبل على قراءته من صحف ومطبوعات، وفيما يتسلى به من أنواع الأفلام السينمائية وهي غير ما يتسلى به الأطفال، وفي غشيان المجتمعات التي يغشاها الكبار، كالمنتديات والمطاعم العامة. وأخيرا، وليس آخرا، في محاولة اتخاذ أصدقاء من الجنس الآخر أو الرغبة في مجالسة أفراد الجنس الآخر وقضاء الوقت في التحدث إليهم.

ولا يفوتنا في ختام حديثنا عن تكيف المراهق للمجتمع أن نشير إلى ظاهرة واضحة، ذات دلالة قوية على رغبة المراهق في التوافق مع المجتمع، وهي دأب المراهق على التفتيش عن نواحي النقص والعيب في المجتمع

والدعوة جهرا أو على صفحات المذكرات الخاصة أو صفحات الجرائد، إذا تيسر له ذلك، إلى إصلاح هذه النقائص والعيوب..

ودعوة المراهق إلى الإصلاح الاجتماعي تنطوي على مدلولين؛ **الأول:** رغبته في تأكيد رجولته وأحقيته بالانضمام لمجتمع الكبار، **والثاني:** رغبته في إسداء خدمة للمجتمع. وقد أسلفنا القول إن المجتمع لكي يشبع حاجة الفرد إلى رضائه عنه لابد للفرد أن يرضيه، وليس أقرب إلى إرضاء المجتمع من تنقيته من شوائبه وسد نقائصه وإصلاح عيوبه!

وثم نقطة أخرى تجدر الإشارة إليها في صدد الحديث عن تكيف المراهق لمجتمع الكبار، وإن بدت مناقضة لمفهوم لفظ "التكيف". فالمراهق ميال عادة إلى العزلة، منصرف كثيرا إلى أحلام اليقظة وقد يبدو للرائي أن هذين المظهرين مناقضان للتكيف الذي يقتضي التفاعل والاحتكاك. ولكن الواقع أن النشاط العقلي الذي يبذله المراهق في عزلته وخواطره ليس نشاطا أنانيا صرفا، وإنما هو نشاط اجتماعي أيضا؛ فهو في عزلته وخواطره يبلور الفلسفة التي ينتهجها في الحياة ليتقرب للمجتمع ويتكيف له وهو لا يتصور نفسه في عزلته وخواطره منفردا، بل يتصور نفسه عاملا في سبيل المجتمع وزوجا وأبا لأولاد ورجلا اجتماعيا نافعا.

فعزلة المراهق وانسياقه وراء الخواطر، دليل على رغبته الأكيدة في تحقيق التكيف الاجتماعي على أفضل صورة وأكملها.

الفصل الرابع

العقل يثبت وجوده

أسلفنا أن الخصائص الانفعالية في مرحلة المراهقة، لما تتسم به من العنف والتحول والتقلب، تكاد تشبه الخصائص الانفعالية لمرحلة الطفولة المبكرة. إلا أن مرحلة المراهقة مختلفة تماما في خصائصها، كوحدة، عن مرحلة الطفولة وأهم ما يميز هذه المرحلة؛ زحف العقل حثيثا نحو النضج وشروعه في إثبات وجوده. فبانتهاء مرحلة المراهقة، يدخل المرء مرحلة النضج التي تتسم بنضج الناحيتين الانفعالية والعقلية أو هكذا ينبغي أن تكون.

وقد أثبتت الدراسات السيكولوجية والفسيولوجية أن العقل يبلغ تمام نضجه فيما بين العشرين والخامسة والثلاثين. وسن العشرين هي السن التي تشرف فيها مرحلة المراهقة على الانتهاء.

وفي رأيي أن الخطر الأكبر لمرحلة المراهقة، يكمن في تعرض المراهق لقيام الصراع في داخلية نفسه بين ما يقول به العقل والمنطق، وبين ما رضى به الفتى على علاته من

تعاليم البيئة التي أحاطت به يوم لم يكن في وسعه أن يمحص ما يلقي إليه من تعاليم، ويبث فيه من آراء واتجاهات.. فما لقنته إياه البيئة

استجاب له الطفل– قبل المراهقة– انفعاليا، أي تقبله بوحي من إحساساته وحاجاته ووظائفه الأولية..

وإذا كان في الماضي يقع صراع في نفس الطفل، فهو صراع بين الانفعالات والإحساسات والنزعات الأولية، كالصراع بين الحب والبغض ونزعة الاعتداء والإحساس بالأمن، مثلا.. ولم يكن للعقل قط دخل في هذا الصراع لسبب واضح بسيط؛ هو قصوره وتحدد أفقه وضيق مجال نشاطه.

أما في فترة المراهقة، فالعقل يكون قد نما واتسع أفقه وانفسح ميدان نشاطه، بحكم ما حصله الفتى المراهق من دراسة وما اكتسبه من خبرات عقلية نتيجة احتكاكه ببيئات أخرى غير بيئيته الأولى: الأسرة..

ويشعر الفتى المراهق، بدافع من التغيرات البيولوجية والفسيولوجية والسيكولوجية التي طرأت عليه، بحاجة ملحة إلى إثبات ذاته وإبراز شخصيته وتأكيد وجوده. وهو يحقق هذه الحاجة انفعاليا وعقليا في آن معا.. يحققها انفعاليا– كما أوضحنا سابقا– بالثورة على كل ما يقترن في ذهنه بالطفولة وبالتمرد على كل ما يراه محاولة لرده إلى عهدها. ويحققها عقليا أيضا بأشكال مختلفة هي التي نبتغي التحدث عنها هنا.

على أنني أود قبل أن استطرد إلى التحدث عن مظاهر النشاط العقلي في فترة المراهقة، إتمام ما بدأته من حديث حول الصراع الذي لا مفر منه بين العقل وبين ما حمل الطفل على أن يعتنقه أو يؤمن به من

مبادئ وقيم ومثل وآراء واتجاهات. بل إن هذا الصراع ينصب على الدين أيضا فيروح المراهق يمحص ما ألقى إليه من تعاليم دينية أو ما حمل على أدائه من فرائض الدين.

قلت إن هذا الصراع هو أخطر ما تنطوي عليه فترة المراهقة ومصداق ذلك ما نشكوه الآن من أدواء اجتماعية متفشية بين الشباب؛ فالصراع بين الانفعالات بعضها وبعض وبينها وبين المبادئ والمثل هو الذي يولد الأمراض الاجتماعية والنفسية.

ولأدلل على ذلك بأمثلة من واقع ما يدور على ألسنة الشباب وينبئ عن الصراع الدائر في أنفسهم بين حكم العقل وبين ما انفعلوا به وامتثلوا له بدافع من رغباتهم وأحاسيسهم الأولية قبل أن تنضج وظائفهم المفكرة.

تتحدث إلى الشباب المراهقين عن الزواج مثلا، فتسمع مثل هذه الآراء: "كيف أسلم حريتي ومالي طائعا مختارا إلى زوجة؟".. وتستنتج أن الصراع يدور بين مثل انفعل الفتى به، هو في الأغلب مثل أبيه الذي قيدته زوجته في حريته وابتزت ماله وبين حكم العقل في هذه الحال، وهو: "لماذا أتزوج إذا كان هذا هو المصير؟". فهذا صراع بين العقل ونزعة طبيعته إلى التزاوج والتناسل والنتيجة داء اجتماعي أو اضطراب نفسي؛ يتمثل في الإحجام عن الزواج!

أو تسمع رأيا آخر هو: لن أتزوج إلا فتاة غنية أوطد بمالها مستقبلي وأعيش في بحبوحة من الرزق.. وتدرك عندئذ أنه تأثر انفعاليا بأب ناقم

على فقر زوجته أو ربما مقتر على زوجته وأولاده وود ابنه لو أن لأمه ثروة خاصة تنفق منها عليه، أو غير هذا أو ذاك من الاحتمالات. والنتيجة داء اجتماعي آخر يتمثل في الإقبال على الزواج من ذوات الدخل وإهمال من لا دخل لهن!

وتتحدث إلى الشباب المراهقين عن الدين مثلا، فربما سمعت مثل ما سمعت من أحد الشبان في هذا الصدد: "يا عمي.. ده ما بيأكلش عيش!". ويدلك هذا التعبير الدارج، الكثير المدلولات، على أنه ربما فجع في مثله الأعلى الديني، الذي عساه يكون أباه أو مدرسه أو رجل الدين الذي تأثر به.. فعسى أن يكون هذا المتدين الذي تأثر به الفتى انفعاليا، فظا، أو مستبدا، أو متزمتا أو ما إلى ذلك، مما يحفز العقل على أن يصدر حكمه بأن الدين لا يطعم خبزا، أي لا يجدي في الحياة مثلا وتدرك أن في أعماق الشاب صراعا بين العقل وبين حاجة طبيعية إلى الإيمان بقوة أكبر من قوة البشر تنصف وترحم وتغفر الذنوب وتكون النتيجة مرضا اجتماعيا آخر هو الانصراف عن الدين وعن كل ما يمثله مما ينطوي تحت كلمة "الفضيلة".

وتسمع غير ما سقته، على سبيل المثال، كثيرا من آراء الشبان المراهقين إذا استدرجتهم إلى التحدث في سائر مقومات الحياة وتستنتج مما تسمع ذاك الصراع بين العقل من ناحية وبين الانطباعات والانفعالات والمثل والتعاليم التي تتأثر بها انفعالات الطفل دون تمحيص من العقل، أو اختبار على ضوء المنطق.

وهو صراع كان يمكن أن يحد كثيرا من أثره بحيث لا يتحول إلى أدواء نفسية أو اجتماعية، لو عرف الذين يقومون على تهذيب الطبيعة البشرية من الآباء والأمهات والمدرسين، شيئا أكثر مما يعرفون عن الطبيعة البشرية وكيفوا نهجهم التهذيبي أو التربوي على ضوء هذه المعرفة بالنفس البشرية وما يطرأ عليها من تغيرات وتحولات على مر مراحل النمو النفسي.

وصحيح أن العقل ينضج بعد أن تنتهي مرحلة المراهقة ويحل التفكير الموضوعي محل التفكير السفسطائي، ويصبح الفكر أكثر خضوعا للأغراض العملية وأكثر سعيا إلى التكيف مع الواقع، إلا أننا ينبغي أن نذكر أن النضج العقلي التام شيء قلما يتوافر وأن بعض خصائص المراهقة قد تستمر إلى ما بعد سن النضج بكثير.

ونعود الآن إلى مظاهر النشاط العقلي التي تتجلى في مرحلة الطفولة، فنراها تتمثل في العناصر التالية:

- أحلام اليقظة.
- الإقبال على القراءة والاطلاع.
- الاتجاه إلى المثالية الأخلاقية.
- تكوين فلسفة عامة في الحياة.

وأحلام اليقظة هي أول المظاهر على النشاط العقلي في مرحلة المراهقة. وصحيح أن أحلام اليقظة شيء تعرفه الطفولة متمثلا في رفقاء

الخيال والحيوانات التخيلية وما إليها ويستمر إلى ما بعد المراهقة؛ إلا أنه يبلغ أوجه وتنفسح مجالاته وميادينه في مرحلة المراهقة بالذات، حتى لقد سمي "ستانلي هول"، وهو من أوائل العلماء الذين كتبوا عن المراهقة، مرحلة المراهقة بمولد الخيال، وهو في ذلك يقول(٣):

"يعتبر البلوغ تاريخ ميلاد الخيال وحلم اليقظة هو الشفق الذي ينبئ عن إشراق الخيال. وإذا كان الخيال خصبا غنيا، فإنه يستطيع إكمال كل نقص، فهو يمنح الضعيف جسما رياضيا رائعا ويهب المعدم ثراء عريضا. ولا يدخل الخيال في حسابه مقتضيات الزمان أو المكان، فهو ملكة للتعويض والإكمال وفي دنياه تتحقق جميع الأماني"..

وما قاله "ستانلي هول" هو المحور الذي تدور حوله– في أغلب الأحيان– أحلام اليقظة عند المراهق. أي أنها تنفيس عن آماله وأمانيه ومشروعاته المستقبلية، فضلا عن إكمال ما يستشعره من نقص، سواء كان بدنيا أو نفسيا، بحيث تتجلى الصورة التي يرسمها لنفسه في خياله، صورة مثالية كاملة ليس عليها مأخذ وليس بها ثغرة يوجه إليه منها هجوم.. فهو إذا كان هزيلا تصور نفسه رجلا رياضيا نامي العضلات، قوي الجسم. وإذا كان فقيرا، تصور نفسه يملك الضياع والسيارات الفارهة والقصور. وكذلك إذا كان تعسا بسبب انعدام التوافق الزوجي بين أبويه مثلا تصور نفسه زوجا سعيدا هانئا مع أسرته.

---

(٣) Stanly Hall, "Adolescence" Vol. 1.

وعلى الجملة، فأحلام اليقظة إنما تنفيس عن الشعور بالنقص أو تعويض عنه بما يبلغ ذروة العظمة والقوة والسطوة.

وليس في أحلام اليقظة شذوذ، بل هي ظاهرة عقلية طبيعية مصاحبة لمرحلة المراهقة. وإذا وسع المراهق أن يحول ما تمثله من وسائل التعويض إلى حقائق واقعة، فقد أدت أحلام اليقظة رسالتها على خير وجه.

ومن دلائل النشاط العقلي الأخرى المصاحبة لفترة المراهقة، إقبال المراهق بنهم على القراءة والبحث والاطلاع، معتمدا على نفسه ومتحررا من المنهاج الرتيب الذي تسير عليه دراسته النظامية. وهو يقبل على هذه القراءة بوحي من ميوله الخاصة ورغبته في التعرف على العالم الرحب وعلى ما يجرى به من أفكار، تماما كشخص ألفى نفسه في وسط غريب طلب إليه أن يعيش فيه، فراح يتبين معالم هذا الوسط ويحتك بأهله لاستطلاع آرائهم وأفكارهم كي يؤهل نفسه ليصبح واحدا منهم..

وتنم قراءات المراهقين عن خط سير نموهم العقلي؛ فهم أولا يقبلون على الطريق المسلي الذي لا يشق عليهم فهمه من الموضوعات، ثم يتطرقون رويدا إلى ما هو أعمق. يبدأون بما يمتعهم ويسليهم، ثم يتدرجون إلى الشائع المتداول بين الناس جميعا كالجرائد والمجلات ومؤلفات الكتاب المشهورين.

وقد أسفر بحث أجري في أمريكا لمعرفة ميول المراهقين تجاه القراءة، عن النتائج التالية[٤]:

- في سن الحادية عشرة، يميل المراهقون الذكور إلى قراءة قصص المغامرات والمخترعات وتميل المراهقات إلى القصص التي تتصل بالحياة المنزلية والمدرسية، فضلا عن القصص الخيالية، أي تلك التي تصور عرائس الأحلام وأمراءه.
- في سن الثانية عشرة، يميل المراهقون إلى قراءة قصص البطولة والقصص التاريخية وتراجم المشاهير والمكافحين والعباقرة.
- في سن الرابعة عشرة تبدأ في الاتضاح الفوارق الفردية في القراءة. فالمراهق لا يقرأ كل ما يعطى له، أو كل ما تقع عليه يده، بل يختار ما يتفق مع ميله الخاص، كميله إلى الشعر، أو الأدب، أو القصص الغرامية أو غيرها.
- في سن الخامسة عشرة، يقرأ المراهقون قصص الاختراعات والمخترعين وقصص الأسفار والرحلات، فضلا عن الكتب التي تتفق مع الميول الفردية.
- في سن السادسة عشرة، يقبل المراهق على تتبع الحوادث الجارية ويقرأ كل ما يتصل بالمعلومات العامة.

---

(٤) الدكتور مصطفى فهمي "سيكولوجية الطفولة والمراهقة".

وكنتيجة لنمو العقل، نرى المراهق، على نقيض الطفل، لا يتقبل المبادئ الخلقية التي تلقى إليه على علاتها وبغير مناقشة وتمحيص.. أي أن موقفه لما يلقى إليه من مبادئ ونصائح ومواعظ موقف إيجابي ليس سلبيا. كما كانت الحال في الطفولة.

بل إن المراهق ليشتط في الجدل والنقاش وتقليب الأمر على مختلف الوجوه، وقد يصعب جدا إقناعه برأي أو مبدأ يتعارض ومنطقه أو لا يتفق ومثله العليا.. وهو يفعل ذلك لا حبا في الجدل، وإنما رغبة في تأكيد ذاته ومباهاة غيره من الكبار بأن له عقلا مفكرا مثل عقولهم، وأنه لا يقل عنهم شيئا– إن لم يكن يعتقد أنه يزيد عليهم!– رجاحة عقل وقدرة على التفكير والتمحيص..

وفي فترة المراهقة، يجد المراهق نفسه منساقا وراء التعلق بالمثل العليا الأخلاقية. والمقصود بالمثل العليا جماع الخبرات التي اكتسبها والتعاليم التي تلقاها منذ كان طفلا، ثم تبلورت في شكل صيغ أخلاقية عامة. ومن أظهر هذه المثل التي تتجلى في فترة المراهقة خصوصا: التضحية، إنكار الذات، الشهامة، الأريحية، وما إليها.

يجب أن ننوه هنا بأن هذه المثل العليا ليست شيئا جديدا على المراهق؛ بل هي– كما أسلفنا– جماع التعاليم التي تلقاها طفلا؛ وغاية ما هناك أن العقل وسعه أن يبلورها ويسلكها في صيغ أو مبادئ عامة. ولما كانت البيئات تختلف من حيث القيم والمعايير الخلقية، فكذلك المثل العليا عند المراهق تختلف وتتفاوت. وكما أنها يمكن أن تتخذ ناحية الخير

والتكيف الاجتماعي، فهي كذلك يمكن أن تنحرف ناحية المصلحة الذاتية والتباعد عن المجتمع. فقد يعتنق المراهق مثلا عليا يكون هو محورها ومركزها دون أن يقيم للغير وزنا ولا اعتبار.

ومهما يكن ما يتحلى بها المراهق من مثل عليا، فهو بتقدمه في المرحلة وباقترابه من نهايتها، يتكشف له أن هذه المثالية التي يعتنقها بعيدة كل البعد عن حياة المجتمع الواقعية ويدرك أن هذه المثل التي رسمها لنفسه صعبة التنفيذ والتحقيق.. وهو يزداد إدراكا لهذه الحقيقة كلما اتسعت الدائرة الاجتماعية التي يتفاعل فيها، وخاصة إذا كان قد نزل إلى ميدان الوظيفة وازداد احتكاكا بالحياة العملية الواقعية.

وخليق بهذه الحقيقة التي يكتشفها المراهق عند اقترابه من مرحلة النضج، أن تصيبه بخيبة الأمل وتفقد نظرته للحياة إشراقها. ولا منقذ له عندئذ إلا فلسفة عامة للحياة يكونها على ضوء ما تكشف له ويوفق فيها بين مبادئه الأخلاقية ودوافع الحياة ويسلك فيها آماله ومطامحه، بعد أن يعدلها ويحورها بحيث تدخل في نطاق الواقع وتقع داخل حدود الإمكان.

وأعتقد أن فلسفة الحياة التي يكونها المرء لنفسه، مقياس دقيق لمدى ما بلغه من نضج انفعالي وعقلي، إذا راعينا أن هذه الفلسفة يدخل في نطاقها فكرته عن استعداداته ومهاراته وفكرته عن العمل الذي يريد أن يمارسه في الحياة والطريقة التي يشغل بها وقت فراغه والكيفية التي يتكيف بها مع المجتمع ورأيه في الزواج وتكوين أسرة.

ونبئني بفلسفة امرئ في الحياة أستطيع أن أنبئك هل بلغ حد النضج أو ما زال يتعثر في مراحل الطفولة ويتمسك بأهداب بعض خصائصها التي لا تتفق وما بلغه من النمو..

وفلسفة الحياة، كما تشير التسمية، فلسفة قائمة على ما استخلصه المرء من تجارب في الحياة وكيف وفق بينها وبين نزعاته ورغباته وآماله ومبادئه، كي يحيا حياة واقعية يتفاعل فيها مع الناس ويتكيف لهم، دون أن تنغص عيشه أحاسيس الإحباط والحرمان وثبوط العزيمة.

وكل إنسان يتعين عليه أن يكون لنفسه فلسفة في الحياة ويفعل ذلك غير معتمد على معونة أحد إلا خبراته وتفكيره، وهو مضطر فيها– كما أسلفنا– إلى التضحية ببعض ما تلقاه من تعاليم وببعض ما يعتنقه من مثل وما تعلق به من آمال، ولكنها تضحية تستهدف الاطمئنان وسكينة النفس.

الفصل الخامس

أنت والحب

لعل اتضاح الرغبة الجنسية هو أجلى خصائص مرحلة المراهقة. ووضوح الرغبة الجنسية إنما هو نتيجة نمو طبيعي بيولوجي ونفسي يبدأ منذ الميلاد ويصل إلى أقصى درجاته في فترة النضج..

أما النمو البيولوجي الذي يتسبب في ظهور الرغبة الجنسية في مرحلة المراهقة، فقد أسلفنا شرحه في الفصل الأول من هذا الكتاب عند حديثنا عن البلوغ وعلاماته البدنية الظاهرة والبيولوجية المستترة.

وفيما سلف من كتب هذه السلسلة كنا نتتبع النمو النفسي من أولى خطواته ونشير إلى أن هذا النمو النفسي يصاحب نمو جنسي أيضا، بما أن الرغبة الجنسية هي مظهر غريزة أساسية مركبة في الإنسان (الغريزة الجنسية) لتؤدي غرضا حيويا لا تستمر بغيره الحياة على هذه الأرض، وهو التناسل وحفظ النوع.

وقد رأينا أن هذه الغريزة كانت تظهر في مراحل النمو المختلفة بأشكال مختلفة، بعضها قد لا ينم عنها إطلاقا، كامتصاص الثدي والتحكم في إخراج إفرازات الجسم من الشرج مثلا.. وبعضها ينم عنها بعض الشيء

كاجتناء اللذة من مداعبة الأعضاء التناسلية في فترة الطفولة المبكرة، وكالإعجاب بالجسم عموما والرغبة في عرضه، قبيل البلوغ مباشرة.

أي أن الرغبة الجنسية كانت، حتى حلول البلوغ تتجلى في ثلاثة مظاهر عامة، هي:

١- الشبقية الذاتية، أي استخلاص المتعة من المناطق الشبقية في الجسم في فترة الطفولة المبكرة.

٢- ثم في فترة الكمون التي تمتد بين الطفولة وبداية البلوغ، كانت الرغبة الجنسية تختفي وراء الطاقة الحيوية المتأججة التي ينفس عنها الصبي باللعب مع رفقاء الحي وزملاء المدرسة.

٣- ثم تتجلى الرغبة الجنسية مرة أخرى في النرجسية، حيث يعجب المرء بجسده ويتعهده برعايته ويميل إلى عرضه والتباهي به.

وعقب هذا المظهر الثالث من المظاهر التي يتخذها نمو الرغبة الجنسية، يحل البلوغ ويحس الفتى بالرغبة الجنسية صريحة واضحة، أي تصبح الرغبة الجنسية حاجة بيولوجية ونفسية في آن معا تتطلب الإشباع.

وقد أسلفنا في مستهل هذا الكتاب التفرقة بين البلوغ والمراهقة، فقلنا إن البلوغ لفظ يطلق على تأهب الجسم من النواحي البدنية والبيولوجية لتحقيق الرغبة الجنسية. أما لفظ المراهقة فيطلق على مرحلة

تستمر من العاشرة إلى العشرين وتتسع لتشمل الفترة القصيرة التي تأتي قبيل البلوغ.

والواقع أن مرحلة المراهقة تنقسم من ناحية التطور الجنسي إلى ثلاثة أقسام..

ولكني أريد قبل أن استطرد إلى تفصيلها، أن أوضح للقارئ ما قصدت إليه من عنوان هذا الفصل الذي جعلته (أنت والحب). فالحب هو مظهر الرغبة الجنسية ولا أعني بذلك أن كل حب وراءه الرغبة الجنسية؛ فحب الأب لابنه وحب الأخ لأخته وحب الصديق لصديقه، وغيرها من ألوان الحب ليس وراءها شيء من الرغبة الجنسية كقاعدة.

وإنما أعني أن كل رغبة جنسية يحول اعتبار ما دون تبديها صراحة، تظهر بمظهر الحب؛ ومن ثم فكل مظهر تتخذه الرغبة الجنسية على مر مراحل تطورها تجد الحب ينم عنها، حيث تحول اعتبارات شتى نفسية أو بيئية دون تبديها واضحة جلية.. فانجذاب الطفل الذكر جنسيا إلى أمه في طفولته المبكرة يتبدى في صورة الحب، لأن الاعتبارات النفسية تمنع ظهور هذه الرغبة على حقيقتها، وكذلك حب الطفلة لأبيها وميل الطفل الجنسي إلى جسمه يتجلى كذلك في صورة حب لهذا الجسم ورعاية له ونزعة المراهق الجنسية إلى أفراد جنسه نفسه تحول اعتبارات بيئية دون ظهورها على حقيقتها، فتتجلى على شكل حب موجه إلى فرد أو أكثر من أفراد الجنس نفسه.. وكذلك في أغلب الأحيان تحول الاعتبارات البيئية أو

النفسية أو كلتاهما دون تجلي رغبة الفتى الجنسية فيمن ينشد الزواج منها، فتبدو هذه الرغبة بصورة الحب..

وإذًا فأنت ترى أن الحب قناع ترتديه الرغبة الجنسية كما حالت اعتبارات معينة دون ظهورها على حقيقتها وفي كل مرحلة من مراحل تطور الرغبة الجنسية، تنشأ اعتبارات تحول دون اتضاحها صريحة، فتتجلى في شكل الحب. ولما كانت الرغبة الجنسية تصل إلى أوجها في فترة المراهقة، لذلك كان الحب أشد اتضاحا في هذه الفترة..

وقد قلنا إن الرغبة الجنسية تمر في فترة المراهقة بثلاث مراحل، وكذلك الحب، تجده في شكل من أشكاله في كل من هذه المراحل الثلاث، هي:

(١) النرجسية:

وهي فترة قصيرة تبدأ في نحو العاشرة وتنتهي في نحو الثانية عشرة، أي قبل البلوغ مباشرة. وهي تمتاز بتوجه اهتمام المرء إلى جسمه النامي وتعهده إياه بالرعاية والرياضة وتباهيه به في مجمع أقرانه وأصحابه..

ولعلك تذكر هذه الفترة التي كنت تكثر فيها من التطلع إلى المرآة وتعرض جوانب جسمك من أمام ومن الجانب، ومن خلف، سواء كنت خالعا ثيابك لتزاول الرياضة مثلا أو كنت ترتدي ثيابك لتخرج في نزهة مع الأصدقاء. فإذا خلعت ثيابك عنيت باستعراض عضلاتك ودققت النظر في أجزاء جسمك المختلفة وعرضت طريقة تكوينه وتركيبه وتعرفت على

محاسنه وعيوبه وعولت على أن تنمي المحاسن وتزيل العيوب، وأخذت ذلك مأخذ الجد واجتهدت فيه ما وسعك الجهد، بالرياضة إن كان العيب مما يعالج بالرياضة، أو بالتأنق إن كان العيب مما يستر بالثياب.. وقد تذكر أيضا أنك كنت شديد الحساسية لعيوبك الجسمية، شديد الزهو بمحاسنك البدنية، قوي الرغبة في أن ينال جسمك، عاريا أو مستورا، تقدير الناس وإعجابهم.

وتجلى اهتمامك بجسمك أيضا في اختيار الثياب وأحكام الأناقة والهندام. ولعلك كنت تقضي وقتا طويلا أمام المرآة تجرب هذا القميص ثم تخلعه لترتدي آخر وتربط ربطة العنق بطريقة معينة ثم تحلها لتربطها بطريقة أخرى وتصفف شعرك بشكل ما، ثم لا يروقك فتعمد إلى تصفيفه بشكل آخر.. فأنت يخالجك إحساس بأن الناس كلهم ستتعلق أنظارهم بك متى خطرت في الطريق أو أنك بمعنى آخر، تريد أن تتعلق أنظار الناس كلها بك وتريد حين تتعلق بك الأنظار أن تكون مليئة بالإعجاب والتقدير. بل أنت في كل ما تفعل تتوخى أن تنال الاستحسان والتقدير والمديح؛ ذلك أنك معجب بنفسك، محب لذاتك، تجتني متعة فائقة من المديح والإطراء وسرورا عظيما من الاستحسان والتحبيذ.. وليس في ذلك عيب ولا هو نقيصة، وإنما هي مرحلة طبيعية تمر بها في طريقك نحو النضج والحب فيها، كما ترى، موجه لذاتك.

(٢) الجنسية المثلية:

وقبيل نهاية مرحلة النرجسية، يحل البلوغ، أي تصبح الغدد التناسلية (وهي الخصيتان للرجل، والمبيضان للمرأة)، قادرة على إفراز المني والبويضات ويطرأ اختلاف كبير من حيث الحجم على العضو التناسلي، إذ يكبر حجما ويغطي الشعر قاعدته (العانة)، ويزداد الصوت خشونة (في الرجل) وامتلاء (في المرأة).

أما الفتاة البالغة فتكتشف بلوغها بمقدم الحيض الشهري. أما الفتى البالغ، فغالبا ما يكتشف بلوغه عن طريق الاحتلام أو الاستمناء (العادة السرية).

والاستمناء ظاهرة طبيعية ملازمة للبلوغ، برغم التعقيدات التي تثار حولها. والبلوغ، كما قدمنا يحل في الفترة التي يكون المرء فيها معجبا بجسمه أشد الإعجاب، فلا عجب، حين يلحظ التطور الكبير الذي يطرأ على أعضائه التناسلية، خاصة أن يدفعه حب الاستطلاع إلى اكتشاف ما وراء هذا التطور، وسواء مصادفة، أو عن طريق الأقران الأكبر سنا، لا يلبث المراهق أن يكتشف الاستمناء ويكتشف اللذة التي تصاحبه. ولما كان الفتى في تلك الفترة يجتني المتعة من جسمه، فطبيعي أن يستهويه هذا المصدر الجسدي الذي يجلب له اللذة.

وليس في الاستمناء ضرر بدني على الإطلاق؛ وإنما الضرر الوحيد في الإحساسات التي يثيرها في نفس المرء، كالإحساس بالنقص والإحساس

بالذنب والمخاوف التي تسامع بها عن ضرر الاستمناء. وهي إحساسات ومخاوف جاءت غالبا من تعاليم البيئة وآرائها في المسائل الجنسية عموما، وفي مسألة الاستمناء بصفة خاصة.

ودون أن يحس المرء أنه يخرج من مرحلة النرجسية التي كان فيها جسده هو موضع حبه، يجد نفسه مسوقا إلى الإعجاب بأجسام أصدقائه أيضا وإلى المقارنة بين جسمه وأجسامهم.. ثم رويدا يجد نفسه غارقا في حب صديق أو بضعة أصدقاء من أبناء جنسه، قد يكونون من زملاء المدرسة أو من أبناء الحي. وقلنا "حبا" ولم نقل صداقة، لأنه إحساس تكمن وراءه الرغبة الجنسية ويدفعه انجذاب شديد إلى الرفيق المختار..

وحب أفراد الجنس نفسه يكاد لا يختلف في شيء عن حب الفرد لفرد من الجنس الآخر في المرحلة التالية. منذ يسمو المرء بهذا الحب أحيانا إلى درجة "الرومانسية" وينزل به أحيانا أخرى إلى مرتبة البهيمية وهو يشعر نحو الصديق المحبوب بالعاطفة الجارفة نفسها التي يشعر بها، فيما بعد، نحو فرد من الجنس الآخر. فهو في قربه سعيد مغتبط، وفي بعده شقي معذب وهو يتمثله في خياله دائما ويجتهد في مرضاته ويقدم له الهدايا ويصحبه في النزهات، ويحزن معه إذا حزن، ويبتئس إذا ابتأس.

إن هذا هو الحب الأول الذي يواجهه الفتى، لأول مرة في حياته، إلى خارج نطاق أفراد أسرته، وإلى خارج نطاق نفسه وجسمه..

ففترة المراهقة فترة انتقال من المجتمع الضيق (الأسرة) إلى المجتمع الأكبر أو هي فترة تحطيم الأغلال التي كانت تكبله الأسرة بها لينطلق إلى حياة يصنعها بنفسه لنفسه. وفترة الجنسية المثلية، وهي فترة قصيرة تضمها مرحلة المراهقة هي فترة تدرج من حب موجه إلى رفقاء من أفراد الجنس نفسه إلى حب موجه إلى أفراد الجنس الآخر.

ولكن الحب في الحالين واحد في مقوماته ودوافعه؛ فالرغبة الجنسية التي أصبح الفتى يحسها واضحة صريحة، تكمن أيضا وراء هذا الحب الموجه إلى أفراد الجنس نفسه وتسعى في أكثر الأحيان إلى التعبير عن نفسها متى ازدادت الألفة وتوثقت العرى بين الرفقاء.

وقد ينتهي الحب الموجه إلى الرفقاء من أفراد الجنس نفسه إلى علاقة جنسية وقد يقف عند حد "الرومانسية". ولكن مهما يكن من أمر فليس في ذلك أيضا– كما في حالة النرجسية– عيب ولا نقيصة، بل أن تلك مرحلة طبيعية يمر بها الإنسان في طريق تطوره نحو النضج وعادة ما تستمر فترة الجنسية المثلية من الثانية عشرة إلى نحو السادسة عشرة، ثم يدخل الفتى المراهق مرحلة الجنسية الغيرية.

(٣) الجنسية الغيرية:

وعندما يصل الفتى المراهق إلى السادسة عشرة يكون قد بلغ حدا من النضج العقلي والجنسي يدفعه دفعا إلى الانفلات من المرحلة السابقة– مرحلة الجنسية المثلية– ليوجه تفكيره وعاطفته الوجهة التي كانت الطبيعة

(والبيئة أيضا من الناحية المثالية) تعده لها: وجهة حفظ النوع الإنساني على هذه الأرض.

ولا يلبث الفتى أن يأنس من نفسه ميلا إلى التطلع إلى أفراد الجنس الآخر واستكشاف سر الجاذبية التي يحسها تجاهه.. فالبنت الصغيرة التي كان يلعب معها وهو في الثامنة أو العاشرة قد غدت فتاة هيفاء، ناهدة الصدر، ممتلئة القوام، مستديرة الجسم، وأصبح الخجل يملأ وجهها كلما تطلع إليها أو تطلعت إليه. وهو الذي لم يكن إحساسه تجاهها يزيد أو يقل شيئا عن إحساسه تجاه أي رفيق آخر من رفقاء اللعب؛ قد أصبح يستشعر نحوها إحساسا غريبا جديدا، شبيها بإحساسه نحو أمه حين كان طفلا، باعتبارها مصدر إشباع الرغبة وتوفير الإحساس بالراحة والأمان. ولكن يزيد على هذا الإحساس إحساس- قد يكون واضحا وقد يكون مبهما- بالرغبة والاشتهاء واستطلاع أسرار هذا الجسد الذي تغير وتكور وأصبح يجتذب عينيه اجتذابا.

نعم، إن الحب الذي يحسه الفتى المراهق لأول مرة تجاه بنت الجيران، أو بنت العم، أو بنت الخال أو غيرهن ممن يلتقي بهن في أكثر الأحيان، لا يمكن إلا أن يكون كالحب الذي وجهه إلى أمه طفلا، وكيف يمكن أن يكون شيئا آخر، وكل ما يعرفه المرء- سواء كان محسوسا أو مدركا- لا يمكن إلا أن يكتسبه بالتلقين أو بالتجربة؟.

فالطريقة التي اكتسب بها محبة أمه، هي نفسها الطريقة التي يتبعها في كسب محبة فتاته. والطريقة التي منحته بها أمه الحب هي الطريقة التي

يتوقع أن تمنحه بها فتاته الحب والكيفية التي عاملته بها أمه هي الكيفية التي يريد من فتاته أن تعامله بها. فليس له حتى تلك اللحظة من خبرة بالحب إلا ما خبره في نطاق الأسرة، فهذه هي المرة الأولى التي يتجه فيها بحبه إلى خارج نطاق أسرته، وهو لا يملك إلا أن يسقط على الفتاة التي اتجه إليها، مشاعره تجاه أمه. أو يتخذ منها بديلا من أمه..

وحب الفتى المراهق حب غريزي لا أثر للنضج فيه. إنه حب يقوم على عنصرين؛ الأول: أن يجد خارج نطاق الأسرة من يحل محل أمه في توفير الحب له، والثاني: أن يجد متنفسا للرغبة الجنسية التي تشتد عليه بالإلحاح.

ولكن، إذا كان قد اتخذ من فتاته بديلا من أمه، فكيف يستطيع أن يصارح نفسه برغبته الجنسية فيها؟ إذًا فالملاذ في "الرومانسية" أو "الحب الروحي"، أو "الحب العذري"، أو ما إليها من المترادفات والتسميات التي هي دلالة على شيء واحد؛ الرغبة في تضليل النفس عن حقيقة الهدف الكامن وراء الحب.

وأكثر حب المراهقين من النوع "الرومانسي"، تغطية للدافع الذي حفز إليه وهو الدافع الجنسي، أولا– كما رأينا– لأن موضع الحب يكون– عادة– بديلا من الأم، وثانيا: بفعل التعليمات التقليدية التي تدمغ كل ما هو جنسي بالتحريم والإثم والخطيئة.

وغالبا ما يظل الفتى المراهق حائرا بين حبه الرومانسي وبين حاجته البيولوجية الملحة لإشباع رغبته الجنسية، حتى تنتهي فترة المراهقة في نحو العشرين أو الحادية والعشرين، حين يتوافر لعقله وعاطفته حظ أوفر من النضج وحين يكسبه احتكاكه بالحياة وبعدد أكبر من أفراد الجنس الآخر، فلسفة عملية في الحياة تجاه الحب والمسألة الجنسية؛ أي بمعنى آخر يتكيف للناحية الجنسية تكيفا تمليه عليه ظروفه وتجاربه.

وعادة تكون فترة التأرجح بين الحب العذري وإلحاح الرغبة الجنسية فترة تفتح الملكات والمواهب الأدبية أو الفنية أو الرياضية التي يغرق فيها المراهق حيرته وينفس بها عن شيء من رغبته البيولوجية الملحة، وهي العملية التي تسمى بالتسامي أو بالإعلاء (Sublimation). كأن يجد المراهق إن كانت له موهبة أدبية متنفسا في كتابة القصة أو المقال أو قرض الشعر، أو قد يجد المتنفس في مزاولة الرياضة البدنية أو التصوير الفوتوغرافي أو الرسم أو الموسيقى أو المطالعة، أو ما إليها من الهوايات، ويكون لهذا شأن كبير في صقل مواهب المراهق وإنضاجها، كما يكون له شأن كبير في التنفيس عن رغبته البيولوجية وعاطفته الجياشة.

ولكن هذا التسامي ليس بديلا من الرغبة البيولوجية ولا من عاطفة الحب التي تتبدى بها، ومن ثم يستمر المراهق، إلى أن يتكيف للمسألة الجنسية، موزعا بين الحب الرومانسي وبين التنفيس عن الرغبة الجنسية بالاستمناء أو ترك التنفيس للاحتلام.

ولعل أخطر ما في مرحلة المراهقة من الناحية الجنسية هو التثبيتات الجنسية على خاصية ما من خصائص المراهقة التي ينبغي أن يتحرر منها المرء متى تجاوز سنها.

وقد ذكرنا من الخصائص الجنسية للمراهقة: النرجسية، أي حب النفس.. والتثبت على هذه الخاصية يتجلى، من الناحية العامة، في الانطواء على النفس والأثرة والغرور وإرضاء النفس على حساب الغير، وصعوبة عقد الصلات والصداقات مع الغير. كما يتجلى من الوجهة الجنسية في إدمان الاستمناء واستمتاعه به استمتاعا يفوق ما يجنيه من العلاقة الطبيعية!

كذلك من خصائص المراهقة أيضا الجنسية المثلية، وهي خطوة نحو الجنسية الغيرية ينبغي أن تخلى لها مكانها حين يتهيأ المرء لذلك. والمتثبت على هذه الخاصية عزوف عن عقد الصلات بالجنس الآخر، لا ينتقي أصدقاءه إلا من أفراد جنسه ويجتني من العلاقة بهم لذة تفوق ما يجنيه من العلاقة الطبيعية بالجنس الآخر..

أو قد يتثبت المرء على فترة المراهقة عموما حين يبلغ سن النضج، فيظل موزعا بين الحب الرومانسي والتأرجح بين كبح الرغبة الجنسية والتنفيس عنها بوسائل الفتى المراهق..

ومنشأ هذه التثبيتات عموما إنما يكمن في التربية الأولى التي أخذ بها المرء طفلا وظروف البيئة التي نشأ فيها، والتجارب التي اكتسبها من احتكاكه بالحياة.

الفصل السادس

الحب الأول للمراهق

تحدثنا في الفصل السابق عن المراحل التي تمر بها عاطفة الحب بانتقال المرء من مرحلة "نفسية– جنسية" إلى التي تليها. وأود أن أفرد هذا الفصل للأزمة التي يخوضها المراهقون جميعا وتتفاوت درجة تأثرهم بها تبعا لتفاوت قواهم النفسية؛ وتلك هي أزمة الحب الأول.

إن المراهقة بكافة خصائصها وصفاتها التي أسلفنا ذكرها في هذا الكتاب، إنما هي إعلان تعلن به الطبيعة المرء أنه قد أصبح أهلا لأن يخوض معترك الحياة معتمدا على نفسه ويحقق رسالة الحياة في تخليد نوعه على هذه الأرض. فتخليد النوع قد أصبح الغرض الأول الذي تدفع إليه الطبيعة الإنسان، بعد أن حقق غرضا كان فيما مضى هو الأول، وذلك هو حفظ الذات؛ حفظها من الهلاك جوعا أو ظمأ أو افتراسا بمخالب الوحوش عندما كان الإنسان يعيش في الكهوف ويخوض معركة الحياة أو الموت مع الوسط المحيط به.

إن تخليد النوع رسالة الإنسان المتحضر الذي كفلت له الحضارة الطعام والشراب والمأوى والأمن. فكلما بعدنا عن الحضارة، وجدنا حفظ الذات هي الرسالة الأولى. وكلما دنونا من الحضارة اضمحلت هذه الرسالة لتعلو عليها رسالة حفظ النوع. ولعل من الأدلة الواضحة على

ذلك ما نلمسه في أوساط الفقراء الجهلة الذين يعيشون عيشة أقرب ما تكون إلى الفطرة والغريزة. فهؤلاء إذا تكللت معركتهم في سبيل حفظ الذات بالنجاح وأفلحوا بطريقة ما في تكوين ثروة مثلا، عمدوا– مسيرين بالغريزة– إلى الزواج مثنى وثلاث ورباع ومضوا يطلقون ليزوجوا مرة أخرى، مسببين بذلك مشكلة اجتماعية نعاني منها اليوم!

المراهقة إذًا بالنسبة للشباب المتحضر، ومن وجهة نظر الفطرة والغريزة الخالصة، إنما هي إعلان من الطبيعة بأن الشاب قد غدا متأهبا لأداء رسالته الأولى وهي حفظ النوع. والطبيعة لا تكتفي بإعلان هذه الحقيقة في رفق وهدوء، بل تعلنها في قوة وعنف وتهز الشاب هزا وتلح عليه إلحاحا وتدفعه دفعًا شديدا!. تدفعه بمثل الشدة التي كانت تدفعه بها ليصرخ طالبا الطعام وهو في المهد طفلا أو ليصرخ طالبا الحماية إذا أفزعه ما يثير الفزع. لقد دفعته عندما كان طفلًا عاجزًا لا حول له ولا قوة لأن ينشد معونة أبويه ليحفظ ذاته، وها هي اليوم تدفعه غلاما مكتمل الجسم والأعضاء، متفتح العقل، متنبه الشعور، ليحفظ نوعه!

فما يلج الشاب باب المراهقة حتى يحس بالدافع الجنسي إحساسا قويا عنيفا ويعمد الشاب المراهق إلى خبراته السابقة بحثا عن سبيل يسلكه إزاء هذا الدافع الطارئ، فلا يجد طريقا ملائما، وإنما يجد مجموعة من التحريمات والنواهي والتعاليم التي تدمغ فيه هذا الدافع بالقبح والخبث والرذيلة والمعصية والإجرام!!

ذلك أن الحضارة كما جعلت رسالة حفظ النوع هي العليا، قد أخفقت في أن تجد لتحقيق هذه الرسالة منافذ قويمة سليمة، بل وضعت في سبيلها صنوف العراقيل من عائلية واجتماعية واقتصادية وأخلاقية. ومن أمثلة هذه العراقيل أن الحضارة اقتضت أن تصبح الأسرة غاية في ذاتها لا وسيلة لغاية وجعلت للزواج شروطا اجتماعية واقتصادية لا تتوافر إلا بعد أن يتلظى المراهق بنار رغباته الفائرة ودوافعه العنيفة ونظرت إلى كل شاب يتلمس التنفيس عن رغباته قبل الزواج على أنه مجرم أثيم!

وهكذا يصل الشاب إلى مرحلة المراهقة فيجد هذه العراقيل تجابهه، وإذا هو كالفأر الذي أغلقت عليه المصيدة، فراح يلف ويدور لا يدري ماذا يفعل ولا إلى أين يتجه؛ فكل ما حوله يشير عليه بأن يقبع في مكانه وينتظر. أما دوافعه القوية، فليلتمس لها منفذا آخر لا ينم عنها ولا يفصح عن طبيعتها، فإن الإفصاح عن الرغبة الجنسية إثم وجريمة!

ولا يكون أمام الشاب عندئذ إلا أن يعبر عن رغباته القوية بالعاطفة المصاحبة لها والتي مهمتها أن تربط بينه وبين من يختار من أفراد الجنس الآخر برباط عاطفي، وتلك هي عاطفة الحب.

فعاطفة الحب عاطفة تنزع من الغريزة الجنسية وتتفرع عليها لتؤدي مهمة معينة هي إيجاد رابطة قوية بين الرجل والمرأة تزيد من رغبتهما ومتعتهما بالتزاوج، ولا يمكن أن تكون هناك عاطفة حب بين رجل وامرأة لا تربط بينهما صلة غير هذه الصلة العاطفية، إلا أن تكون عاملا مساعدا على تحقيق الهدف الأول الأصلي، وهو التناسل.

تلك حقيقة أسوقها مجردة لأرتب عليها ما بعدها. فحب المراهق الأول، إنما هو تعبير عن الرغبة الجنسية في الشخص الذي اتجهت إليه عاطفة الحب. بل إن كل حب يلي هذا الحب الأول هو أيضا تعبير عن هذه الرغبة، ولكن الحب الأول بالذات يكون في الغالب تعبيرا عن الرغبة مجردة من أي اعتبار آخر. فحب الرجل الناضج، مثلا، قد تكتنفه، غير الرغبة، عوامل أخرى اجتماعية لابد منها لنجاح الزواج، كأن يدخل في اعتباره مقدار الانسجام الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، والخلقي بينه وبين التي اتجهت إليها عاطفته. ومثل هذا الحب خليق بأن يكون أقل حدة وأخف وطأة من حب المراهق؛ ذلك الذي يقوم، في الأغلب، على الرغبة مجردة. والقاعدة أنه كلما تأجج الحب وازداد عنفا وقوة، كان أقرب إلى الرغبة الغريزية. وكلما هدأ واتزن كان أنضج وأوسع رحابا بحيث يشمل، غير الرغبة، الاعتبارات التي لا يستتب الزواج ويسعد إلا بها.

فإن حب المراهق، أمر حتمي، بل ضرورة تدفع إليها الاعتبارات الاجتماعية السائدة. أنه يحب ليعبر وينفس عن رغبته الجنسية القوية التي لا يملك لها ردا إلا بأن يحب ويخلي الحب من طابعه الجنسي لكي يرضى عنه المجتمع.

ولكن إلى من يتجه حب المراهق؟ وما هي صور هذا الحب. وعلى أي وجه ينتهي هذا الحب؟

إذا كانت المراهقة المرحلة التالية مباشرة لمراحل الطفولة ولم يكن للولد في طفولته سوى معشوقة واحدة لا يعرف غيرها، هي أمه، فيستتبع

هذا أنه حين يتجه بعاطفته إلى خارج عائلته، فهو يبحث عن بديل من أمه!

ولا ينبغي أن تكون هذه الحقيقة مثارا لفزع أو ذعر، وإنما ينبغي أن تكون موضع فهم وإدراك. ولعل الذي يثير الفزع في هذه الحقيقة أن الحب– كما قدمنا– تعبير عن الجنس وأن يحب المرء من يمثل أمه معناه أنه يرغب في أمه رغبة جنسية، وأنه عندئذ مصاب "بعقدة أوديب". ولكن الواقع أن الموقف لا يتحتم أن يكون هكذا دائما. فثمة فارق بين "الموقف الأوديبي" و"عقدة أوديب" المرضية.

أما الموقف الأوديبي Dedepal Situation فموقف نمر به جميعا في طفولتنا. فالأم، لأي فرد، هي معشوقة طفولته الأولى، يعكس عليها حبه لنفسه ويود أن يستأثر بها دون سائر الخلق أجمعين؛ دون أخوته، وأبيه على وجه الخصوص الذي تنتمي إليه الأم مباشرة. ففي فترة ما من طفولتنا نود أن يتركز حب الأم فينا وحدنا وننظر فإذا الأب منافس لنا في هذا الحب، فنود لو لم يكن هناك أب، أو بمعنى آخر، نود لو زال هذا الأب ليخلو لنا وجه الأم. وهذا هو الموقف الأوديبي. ونحن نتغلب على هذا الموقف بأن تتخذ من الأب مثلنا الأعلى وتتقمص شخصيته فلا يبقى هناك مجال لأن تتمنى زواله، وإنما لنتخذ لأنفسنا شريكة تغدو بالنسبة لنا كأمنا بالنسبة لأبينا..

هذا هو الوضع الطبيعي الذي لا شذوذ فيه، بل الهدف الذي من أجله قامت الأسرة. فقد تكونت الأسرة أصلا ليكون للنشء منها موجه

ومؤهل للحياة: نحب الأم ونجلها ونقدرها لكي نتدرب على أن نحب زوجاتنا ونقدرهن ونتخذ من الأب مثلنا الأعلى ونكتسب صفاته الخلقية، ونحاكي علاقاته الطيبة بزوجته وأبنائه، لكي تكون لنا من ذلك خبرة تفيدنا في علاقاتنا بزوجاتنا وأبنائنا وبالمجتمع عموما. هذه هي الغاية الرئيسة للأسرة؛ أن تعد الأبناء لتقدمهم للحياة في الوقت المناسب؛ أي تعدهم للانفصال عنها عندما يصبحون أهلا لخوض معترك الحياة، لا أن تجذبهم إليها حتى ولو أصبحوا رجالا أو كهولا!

وحين تنقلب الأسرة غاية في حد ذاتها يكون المجال مفتوحا أمام تحول الموقف الأوديبي إلى عقدة أوديب المرضية. فعندما تنقلب الأسرة غاية في ذاتها، تعمد الأم إلى أبنائها فلا تعدهم للانفصال عنها في الوقت المناسب، وإنما تهيئهم للالتصاق بها مدى الحياة!. وهي تعدهم لذلك بأن تبالغ في توثيق صلتها العاطفية بهم وتشجيعهم على اللوذ بها في كل صغيرة وكبيرة والارتماء في أحضانها لأقل ما يكرب أو يجزع..

وقد تسوء العلاقة بينها وبين زوجها، فتدخل الأبناء طرفا في النزاع وقد تؤلبهم على أبيهم ليتحزبوا لها، وإن رأت منهم بادرة ميل إلى الاستقلال والابتعاد عنها أسلمت نفسها للبكاء أو اصطنعت المرض لترقق قلوبهم ولتشدهم إلى حظيرتها وتثبت عاطفتهم عليها. ومن الأمثلة على ذلك خطاب أطلعني عليه شاب مراهق طالب بالجامعة، أرسلته له أمه حين أنهى إليها بأنه اعتزم أن يقضي الفترة التي تسبق الامتحان عند زميل له يقيم بمفرده، هربا من ضجيج البيت الذي يعكر عليه صفو مذاكرته. وها

هو الخطاب، أسوقه نموذجا لما يمكن أن تصنعه الأم لتثبت عاطفة ابنها عليها:

"ولدي العزيز:

"لقد صدمني قرار خروجك من البيت صدمة مروعة وأنت تعلم أنني لا أمكث في البيت إلا من أجلك أنت وأخوتك وفي حمايتكم، وأنه ليس لي أحد غيركم وأنت تعلم تماما مقدار حبي لك ولهفتي عليك. وقد كنت أشعر نحوك وأنت في طفولتك شعورا غير عادي ودائما أتمنى أن أكون معك؛ ولكنك للأسف كنت أول من تخلى عني وتركني مجروحة الشعور. ولعل كل ما ستفعله الآن أن تأتي من حين لآخر لتسأل عني مجاملة لا حنانا أو تأتي لكي تستبدل ملابسك أو لتتناول وجبة طعام؛ تفعل كل هذا وأنت تعلم أن لك أما في أشد الحاجة إليك. إنني مستعدة لأن أتنازل عن عين من عيني لترجع إليّ! ولكني على كل حال أسأل الله لك الخير لأنك كافأتني على حبي لك بأن تركتني بغير سبب. أليست هذه قسوة كنت أظن أنه لن يقسو بها على أحد من أولادي، خصوصا أنت؟! جزاك الله كل خير! سأطلب لك ليل نهار السعادة والصحة والعافية من قلب أم مخلصة متفانية في حبكم، وأسأل الله أن يجعلكم في هناء دائم وأن أموت في وجودكم جميعا، أنه سميع مجيب الدعوات".

"والدتك التي لم تذق طعم الراحة في حياتها"

فإذا لم تكن كل كلمة في هذا الخطاب قد قصد بها أن تكون جمرة لتذكي في قلب الابن نار حبه لأمه، فماذا تكون؟!. ولم يكن الابن، الذي يبلغ الحادية والعشرين، مسافرا إلى أدغال أفريقيا أو إلى القطب الجنوبي، وإنما كان منتقلا إلى مبعدة أمتار من مكان أمه ولم يكن في نيته أن يترك أمه إلى الأبد– وهل يستطيع وهذه كلماتها وهو بشر؟!– وإنما كان في نيته أن يقضي شهرا مثلا حتى يؤدي الامتحان.. فهل ثمة جدال– في هذه الحالة على الأقل– أن الأسرة قد انقلبت غاية في ذاتها وتحولت فلكا يدور فيه وحده الأبوان والأبناء جميعا؟! وهل ثمة غرابة في أن يعاني الشاب من عقدة أوديب؟!

وقد ذكرنا أنه لكي يمر الوقت الأوديبي بخير وسلام، يجب أن يعمل الأبوان على دفع أبنائهما إلى الخارج بدلا من جذبهم إلى الداخل، فإن لم يفعلا– أحدهما أو كلاهما– كما رأينا في المثل السابق، كان التثبت على الموقف الأوديبي وتحول هذا الموقف إلى عقدة تنغص على المرء حياته وتجعل نفسه مسرحا للأحاسيس السلبية الهدامة كالخوف والقلق والشعور بالنقص والإحساس بالذنب؛ ومرتعا للصراع بين الانفعالات المتضاربة المتباينة.

كذلك خليق بالموقف الأوديبي أن يتحول إلى عقدة أو مركب، إذا لم يسد الوئام والانسجام الحياة الزوجية. فقد أسلفنا أن الموقف الأوديبي يحل بأن يتقمص الولد شخصية أبيه ولكنه لكي يفعل هذا دون حرج وبغير توتر، يجب أن يكون الأب مرضيا عنه من الأم.. فإذا لم يكن الأب موضع

رضا الأم وحبها، فإن الابن يتصور أنه إذا تقمص شخصيته فسوف يحرم من حب الأم مادام أصبح كأبيه المغضوب عليه، ومن ثم يكر عائدا إلى حظيرة الأم التي لا يقوى أن يواجه الحياة بغير حبها وحنانها وهو الطفل العاجز، القاصر الإدراك، الشديد الرغبة في الاستقرار العاطفي، ولما كانت الأم والأب على غير وفاق، فهو يناصر الأم رغبة في الحصول على حبها ويحقد على أبيه، فيتثبت على الموقف الأوديبي الذي تكتنفه أصلا الرغبة في زوال الأب والاستئثار بالأم دونه!

كذلك من بواعث تثبت الطفل على الموقف الأوديبي، تفرقة الأم في معاملتها لأبنائها أو ظهور المنافسين له في حبها من الأخوة. فإنه عندئذ خليق بأن يصيبه الشك في صدق أمه في حبها له، ويركز همه في السعي الدائب لاجتلاب عطفها وحبها، ومن ثم يتثبت في نفسه الموقف الأوديبي ويتحول عقدة منغصة.

إذًا فإسراف الأم في حب ولدها أو ضنها بالحب عليه أو ظهور هذا الحب بمظهر المشكوك فيه أو النفور والاختلاف بين الأم والأب، هي العوامل الكفيلة بتثبيت الولد على الموقف الأوديبي، ثم يتحول عقدة مرضية تجلب عليه المنغصات النفسية المختلفة.

* * *

ونعود إلى حب المراهق فنقول، إن تطلع الشاب أول ما يتطلع إلى بديل من أمه، إما أن يكون تطلعا طبيعيا لا غبار عليه، إذا توافرت

الشروط الطبيعية في جو الأسرة، وتربى الشاب في هذا الجو تربية تستهدف إعداده للانفصال عن الأسرة، وفي الوقت نفسه مزودا بالمثل والصفات الطيبة التي اكتسبها من الأسرة. وإما أن يكون تطلعا مرضيا بوحي من عقدة أوديب التي تثبتت في نفسه من جراء أخطاء التربية وشوائب جو الأسرة.

والشاب الذي يتطلع تطلعا طبيعيا إلى بديل من أمه، خليق بأن يبحث بين من يوجه إليهم الحب عن الفتاة التي يسعدها، وتكون له شريكة متوافقة منسجمة يصنعان معا جوا عائليا سعيدا ينمو فيه أبناؤهما، كذلك الجو الذي نشأ هو فيه..

أما الشاب الذي يتطلع تطلعًا مرضيا إلى بديل من أمه، بوحي من عقدة أوديب الراسخة في نفسه فهو خليق بأن يبحث بين الفتيات عن فتاة تسعده وتركز اهتمامها فيه وتخلص حنانها له وتصب رعايتها عليه.. إنه ينشد أن يكون المحور الذي تدور هي حوله؛ يريد أن يكون هو كل دنياها. فكما أخفق في الاستئثار بأمه دون أبيه، يريد الآن أن يتحقق من أن التي اختارها بديلا من أمه ملك له حقا لا يشاركه فيها أحد ولا تمنح اهتمامها لأحد غيره.

وثمة فارق مهم آخر بين الشخصين: ذلك الذي يتطلع تطلعا طبيعيا إلى بديل من أمه، والذي يتطلع إلى البديل نظرة مرضية؛ فالأول ينظر إلى الأمر نظرة موضوعية. بمعنى أن نظرته متحررة من الشوائب، في وسعها أن تقدر له ما يصلح له من الفتيات وما يناسبه من الصفات. إنه يبحث عن

شيء خارج عن ذات نفسه، وإن يكن متصلا بمثل أعلى يستهدفه. أما الآخر، فينظر إلى الأمر نظرة ذاتية. فنظرته تشوبها شوائب التربية الخاطئة التي ثبتته على حبه لأمه. وهو إذ يسعى في الظاهر إلى حب آخر، إنما يكون سعيه في الواقع امتدادا لسعيه الأول في الاستئثار بحب أمه.. أو يبحث عن شبيه واضح لأمه سواء في الشكل أو الصفات، وإما أن يبحث عن فتاة تناقض أمه في الشكل والصفات مناقضة تامة، على سبيل التمويه والتضليل، وابتعادا عن مواجهة الأمر الواقع، وهو أنه لم يكف عن تعلقه بأمه وما زال في يفاعته متعلقا بها كما كان طفلا.

وعلى الجملة يمكن القول إن الفارق بين الشخصين يتمثل في أن الشاب الذي يتطلع تطلعا طبيعيا إلى بديل من أمه، إنما يتطلع إلى مثل أعلى. والآخر الذي يتطلع تطلعا مرضيا إلى بديل من أمه، إنما يتطلع إلى أمه نفسها ويستهدف هدفا طفليا لا سبيل لتحقيقه في دنيا الواقع، وهو الاستئثار بها.

ولن تجد شابا يعاني من عقدة أوديب إلا ويكره أباه أو ينقم عليه وقد ينتحل لهذا الكره أعذارا موضوعية يقف عليها بتركيز ذهنه في التفتيش عن أخطاء أبيه، حتى يكون له من هذه الأخطاء مبرر كاف لكراهيته!. أو أنه قد يردد في غير تدبر. الأخطاء التي ترميه بها أمه حتى يكون متفقا معها في وجهة نظرها ليظفر بهذا الاتفاق بحبها وحنانها أو قد يسبغ الابن على نفسه من الصفات ما يناقض صفات أبيه تقربا من أمه.

ومن الأمثلة على ذلك شاب كانت أمه تصف أباه شاكية، بحدة المزاج والتقتير في الإنفاق وبذاءة اللسان، فآل الشاب على نسفه، إرضاء لأمه واجتذابا لعطفها وحبها أن يتصف بالهدوء والسخاء وحلاوة اللسان؛ ولكنه بقى مع ذلك شقيا، يعذبه إحساسه برغبته في الاستئثار بأمه دون أبيه وكراهيته التي وجد نفسه يضمرها لأبيه، لا لشيء إلا لأن أمه تكرهه وتنقم عليه واضطراره لأن يحرم نفسه من اتخاذ أبيه مثلا أعلى له!

فهذه العوامل كلها التي تثقل نفس الشاب الذي تثبت على الموقف الأوديبي، بحيث أصبح عقدة، خليقة بأن تجعله يتخبط في حبه الأول وتهيئ له الجو لأن يتأزم أن جرت الأمور على غير ما يشتهي واختتم هذا الحب بزواج الحبيبة مثلا من شخص آخر أو بهجرانها له. فهو لنظرته إلى هذه الحبيبة على أنها بديل من معشوقة طفولته، لا يكاد يصمد للإحساس بأن الفتاة هجرته أو انقلبت عليه أو سعت إلى غيره.. فمعنى ذلك أنها لا تحبه الحب كله، وهو يترجم هذا المعنى، لا شعوريا، إلى لغة الطفولة التي مازال يعيش في انفعالاتها، بحيث يحس أن أمه قد هجرته أو حبست عنه حبها أو لم تجده كفؤا لمنافسه القديم؛ أبيه!

أعرف شابا مراهقا، كان إذا ضرب موعدا لفتاته وأخلفته، أحس على الفور بأعراض مرض قديم أصابه في طفولته وبلغ من خطره أن دفع أمه إلى تركيز اهتمامها فيه دون سائر أخوته!. وكان معنى هذا أنه إذا كان قد فشل في اجتلاب عطف فتاته– التي هي في لا شعوره أمه– وهو

صحيح معافى، فليعمد إلى الطريقة المجربة التي يعرف أنها ستجلب له العطف والحب، وهي المرض، بل ذلك المرض الخطر بالذات!

ولك أن تتصور ما يمكن أن يحدث إذا هجرته هذه الفتاة هجرا نهائيا أو ختمت علاقتها معه بأن تزوجت من شخص آخر، وهو الذي يحدث عادة في أول حب للمراهق!

والإحاطة بموضوع الشذوذ الذي قد يصاحب حب المراهق الأول نتيجة لرواسب التربية الخاطئة أو شوائب الجو العائلي الذي نشأ فيه، تقتضي كتابا بأكمله.. بل إن أنواع الشذوذ الجنسي وأشكاله ما هي إلا أنواع من الشذوذ في الحب، مادمنا قد عرفنا أن الحب عاطفة تتفرع إلى الرغبة الجنسية وتستهدف تيسيرها.

وإنما الهدف الذي أسعى إليه في هذا الفصل؛ أن الحب الأول للمراهق شيء طبيعي بل حتمي، وانتهاءه دون أن يكلل بالزواج شيء طبيعي أيضا، بل إن هذا هو الذي يجب أن يكون. وذلك لعدة أسباب:

أولها وأهمها: أن المراهقة تلي الطفولة مباشرة، وفي وقت لا يكون فيه العقل والإدراك قد نضجا نضجا يتيح حسن الاختيار. كما أن العاطفة نفسها تكون عاطفة متقلبة بين الطفولة والنضج متأرجحة بين الرغبة في الحصول على الحب، كشأن الطفولة، والرغبة في إعطاء الحب كشأن النضج.

وثانيها: أن الرغبة الجنسية وحدها في بدء فورتها وطغيانها، تكاد تكون هي العامل الوحيد الذي يشكل عاطفة الحب ويحدد موضوع الحب.

وثالثها: أن ثمة احتمالا لأن يكون الحب مدفوعا، فضلا عن الرغبة الجنسية، بالموقف الأوديبي المتثبت.

فإما أن يحب المراهق، فذلك أمر طبيعي تحتمه طبيعة المرحلة التي وصل إليها. وهو أمر لابد منه لكي يتمرس الشاب بالعلاقة المختلطة ويتعرف على طبيعة المرأة وأساليب تفكيرها ونماذج سلوكها. وأما أن يشتط في هذا الحب ويركز فيه آماله بحيث لا يدع فيها ثغرة متجهة إلى خارجه أو لا يدخل في حسابه احتمال انتهاء هذه العلاقة على غير طائل، فهذا هو ما يجب أن يحذر منه المراهق.

إن الحب الأول للمراهق ما هو إلا فرصة لزيادة خبرته بعالم المرأة، ذلك العالم الذي كان محدودا بأمه وهو لما يزل طفلا؛ وهو فرصة أيضا للتنفيس عن رغبة لا يتأتى تحقيقها والتعبير عنها إلا بعد انتهاء مرحلة المراهقة، ربما بسنوات عديدة، فلنفد من هذه الفرصة على هذا الأساس وحده.

وختامًا:

لعل هذا الكتاب الموجز في المراهقة قد ألقى بعض الضوء على خصائصها وبصَّر الآباء والمراهقين بعناصرها ومقوماتها. فخليق بالآباء والمربين، إذا أدركوا خصائص المراهقة وعرفوا مقوماتها، أن يعينوا أبناءهم المراهقين على اجتيازها بسلام ويجنبوهم عثراتها ومزالقها. وخليق بالمراهقين إذا عرفوا خصائص الفترة التي يمرون بها، أن يحسنوا فهم أنفسهم ويتفادوا ما قد يساورهم من ظنون ومخاوف؛ تبتعثها في نفوسهم الإحساسات الجديدة الغريبة التي يجدون أنفسهم في خضمها.

وخليق بالمراهق إذا أحسن توجيهه وفهم نفسه؛ أن ينعم بنضج عاطفي يتيح له فرص السعادة الحقة في هذه الحياة.

الفهرس